احمد صليحة

أسبانيا

حول العالم

أسبانيا

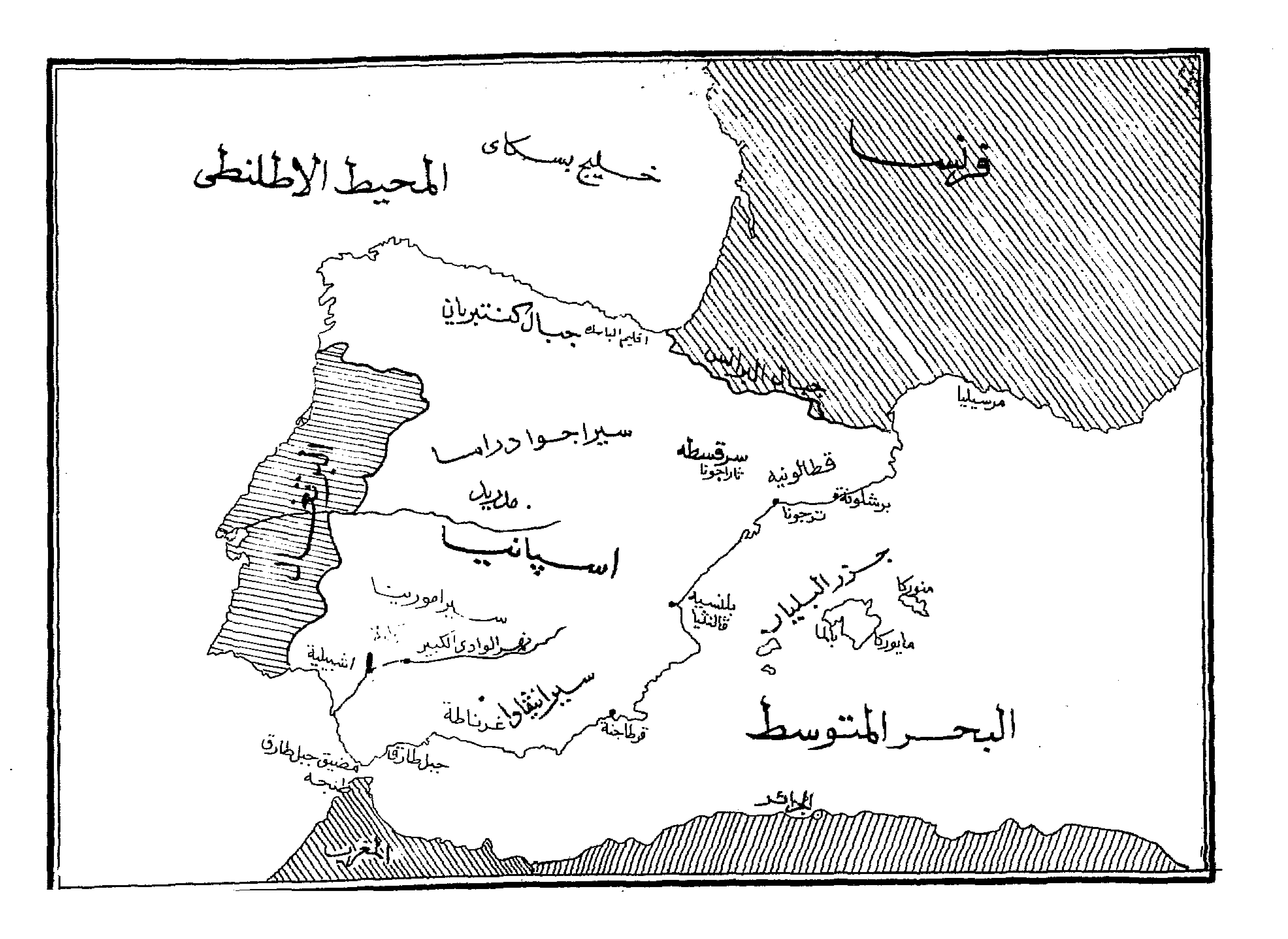
أحمد صليحة

الناشر

رقم الإيداع : ٤٦٨٠ / ٩٥

الترقيم الدولى : I.S.B.N:977-276-066-5

منف للنشر والخدمات الإعلامية



المحيط الاطلنطى
خليج بسكاى
فرنسا
جبال كنتبريان
اقليم الباسك
جبال البرانس
مرسيليا
سيراجوادراما
سرقسطة
ثاراجوثا
قطالونية
برشلونة
ترجونة
مدريد
اسبانيا
جزر البليار
منوركا
مايوركا
بالما
بلنسية
فالنثيا
سيرامورينا
نهر الوادى الكبير
اشبيلية
سيرانيفادا
غرناطة
قرطاجنة
البحر المتوسط
مضيق جبل طارق
جبل طارق
طنجة
الجزائر
المغرب

أسبانيا عبر الزمان

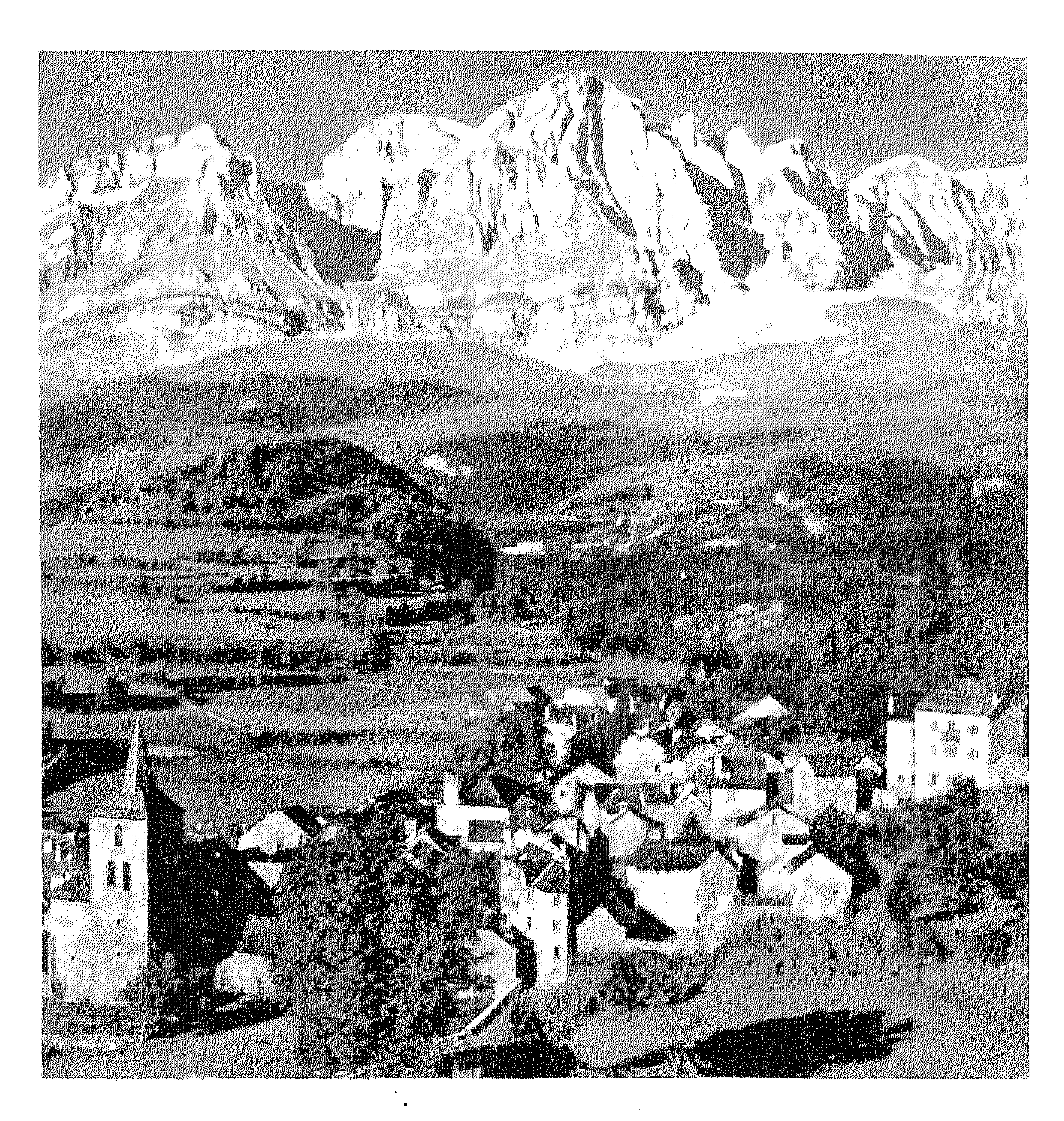
فى ١٢ سبتمبر ١٩٤٠ خرج أربعة صبية من بلدة مونتنياك الفرنسية يتنزهون فى غابة جبلية فى منطقة جبال البرانس التى تمثل الحدود الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا وأخذ الصبية يعدون وسط الأشجار ومن أمامهم كلبهم. وفجأة اختفى الكلب، وتبين الصبية أنه سقط فى حفرة تخلفت عن سقوط شجرة صنوبر ضخمة فى عاصفة كانت قد هبت قبل أيام. وعندما نظروا فى الحفرة، وجدوا ممراً ضيقًا عميقًا فى أرضها لم يكن أحد قد تنبه إلى وجوده. ومنه جاء صوت الكلب واهنًا كأنما هو يستغيث بهم، فتشجع أحدهم، وولج بجسمه من فتحة الممر وأخذ ينزل إلى أسفل وسط ظلمات متكاثفة، وبعد برهة أحس بالممر يتسع، فنهض من موضعه، وكان الظلام محيطاً به، فأخرج علبه كبريت وأشعل منها عودا، وعلى ضوئها الشاحب رأى مفاجأة مذهلة.

ألفى الصبى نفسه فى كهف زينت جدرانه بصور ملونة تمثل ثيرانًا ووعولاً وجياداً تعدو، ومن خلفها وحولها الصيادون يطاردونها بسهامهم. أخذ الفتى يحدق فى دهشة فى هذه الصور، ويتساءل عمن يكون قد رسمها. ولعله لم يدرك فى تلك اللحظة أنه قد كشف صفحة جديدة من تاريخ المنطقة تعود به آلاف السنين إلى الوراء.

كان الفنان المجهول الذى أبدع تلك الرسوم واحداً من أبناء القبائل البدائية التى عاشت فى أسبانيا وجنوب فرنسا فى العصور الحجرية القديمة، أى قبل أن يكتشف الإنسان المعادن ويتعلم فنون صناعتها.

وكان أبناء تلك القبائل من الصيادين يتخذون فئوسهم وسكاكينهم وأسنان رماحهم وسهامهم من أحجار الظران (الزلط) وكانوا في بادئ الأمر يستخدمون الأحجار الخشنة بعد شحذ جوانبها وسن أطرافها، ولكنهم بمرور الوقت تعلموا فن تهذيب الأحجار وصقلها وتفننوا في صناعة أسلحتهم الحجرية وزخرفة مقابضها الخشبية بالنقوش، بل وتعدى ذلك إلى صناعة التماثيل وتزيين الأواني الفخارية بالزخارف وجدران الكهوف بالصور ولم يكن حب الجمال هو الدافع الوحيد وراء تلك النوازع الفنية، بل يبدو أنه كان لتلك الصور أغراض سحرية، إذ كانت تلك القبائل تمارس شعيرة سحرية عشية الخروج إلى الصيد، حيث يؤدي فريق من الصيادين دور الطرائد التي يحاول الفريق الآخر الإمساك بها. وكان نجاحهم – وهو أمر محتوم – في الإمساك بتلك الطرائد (زملائهم) كفيلاً بأن يمنحهم الحظ السعيد في الصيد في اليوم التالي. وكانت هذه الصور محاكاة لتلك الشعيرة، وتتميز عنها بأنها دائمة، فهي تجلب الحظ الحسن إلى من يعيش في تلك الكهوف التي تزين جدرانها.

ورغم هذه البراعة الفنية، لكن التقدم الحضاري ظل يسير في أسبانيا بخطى بطيئة نسبياً بالمقارنة بشعوب شرق البحر المتوسط. ولم يكن لهذه القبائل كيان سياسي واحد يجمعها، إذ أن وعورة الأراضي الجبلية لشبه الجزيرة الأيبرية (أسبانيا والبرتغال الآن) كانت تعوق هذه الوحدة. وقد تعلم السكان الرعي والزراعة ثم نشأت على شواطئ أسبانيا الجنوبية والشرقية مجتمعات صغيرة في النصف الأول من



جبال البرانس الحد الفاصل بين أسبانيا وفرنسا

الألف الثانى قبل الميلاد عرفت استعمال المعادن وكانت لها اتصالات واسعة مع أفريقيا وايطاليا وشرق البحر الأبيض.

وقد نجح الأغريق فى الألف الأول قبل الميلاد فى تأسيس مستعمرات لهم على الساحل الأسبانى، وتبعهم فى ذلك القرطاجنيون.

وقرطاجنة كانت فى الأصل مستعمرة فينيقية فى شمال افريقيا بالقرب من مدينة تونس الحالية. وقد ازدهرت هذه المدينة بفضل نشاطها التجارى وأسطولها القوى، حتى فرضت سيادتها على شمال أفريقيا فى القرون الأخيرة السابقة للميلاد، وتطلعت إلى غزو أسبانيا فى عهد ملكها همليكار برقة ثم خلفه هسدروبال (فى القرن الثالث قبل الميلاد). وأكمل مسيرتهما القائد الشهير هانيبال الذى عبر بجيوشه جبال الألب إلى ايطاليا، وحاول غزو روما ذاتها.

ورغم الانتصارات السريعة الباهرة التى أحرزها هانيبال، لكنه منى بالهزيمة فى نهاية الأمر، واستولى الرومان على أسبانيا، ثم دمروا قرطاجنة فيما بعد.

ولكن الأسبان لم يستسلموا بسهولة لسلطان روما، بل قاموا بثورات عدة، وقد تزعم احداها قائد يدعى فيرياتو، فخاض ضد الرومان حرباً للعصابات لمدة ست سنوات، حتى تمكن الرومان منه فى آخر الأمر وحاصروه مع أتباعه فى بلدة نومانس (١٣٩ ق. م.) وعندما أيقن الأسبان بأن الغلبة ستكون للرومان، فضلوا الانتحار على الاستسلام، فأشعلت نساؤهم النار وقفزن فيها مع أطفالهن، بينما خرج الرجال فى هجمة انتحارية أخيرة. والواقع أن المقاومة استمرت ولم يستكمل الرومان فتح أسبانيا حتى عهد أغسطس (١٩ ق. م.).

وفى ظل الحكم الرومانى انتشرت الثقافة الرومانية/الاغريقية والكتابة اللاتينية. وقسمت البلاد إلى خمس مقاطعات يحكم كلا منها حاكم محلى خاضع لروما. وبدأ الأسبان يحاكون الرومان فى ملابسهم

وبيوتهم وأساليب معيشتهم، وقد ولد فى أسبانيا عدد من مشاهير الفلاسفة والأدباء الذين أسهموا فى إثراء الحضارة الرومانية بأعمالهم ومنهم الفيلسوف سنيكاو والشاعر لوسيان، كما شهدت أسبانيا مولد العديد من الأباطرة مثل هدريان، وماركوس أورليوس وثيودوسيوس. وبفضل ما نعمت به أسبانيا من سلام أثناء القرون الأولى للحكم الرمانى، ازداد رخاء البلاد واقيمت الكثير من المنشآت الهامة مثل الجسور وقنوات المياه المرفوعة على عقود حجرية والتى تنقل المياه من الأنهار والينابيع إلى المدن. وفى تلك الفترة انتشرت المسيحية وأصبحت هى الديانة الرئيسية هناك.

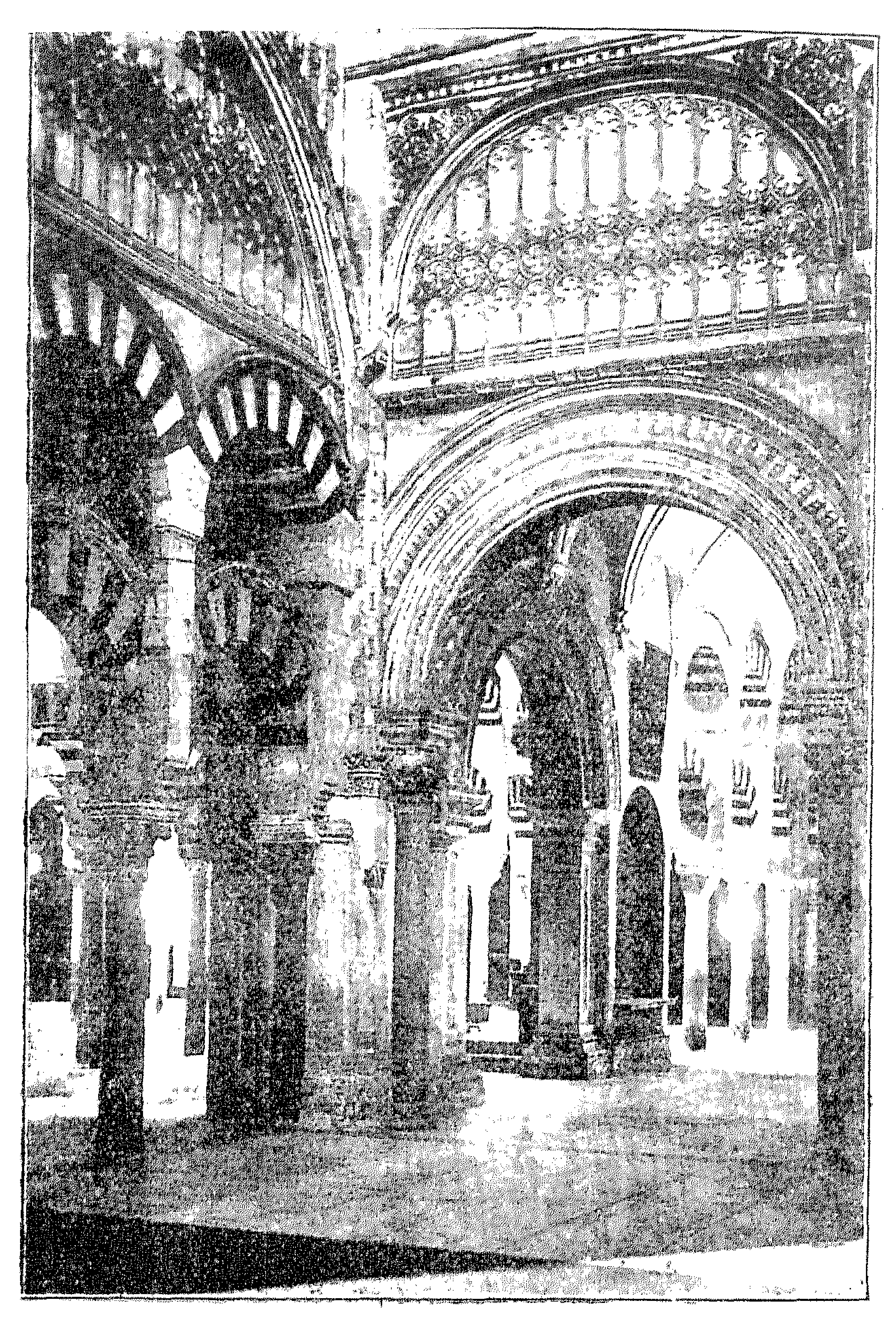
ولكن السلم لم يستمر طويلاً، ففى عام ٤٠٩ م غزت قبائل الوندال (الفندال) البربرية أسبانيا بعد أن عبرت جبال البرانس مع حلفائها من قبائل الآلان والسويف. ولم يكن لدى روما القوة الكافية لصدهم، لذا استعانت بحلفائها من قبائل القوط الغربيين التى استطاعت أن تكسر شوكة هؤلاء البرابرة، ولكنها لم تطردهم من هناك، بل سمحت لهم بالإقامة فى مناطق مختلفة، وكان أن أقام الوندال فى الجنوب فى منطقة باطقة التى عرفت نسبة لهم باسم فندالوشيا، ومنها جاء اسم الأندلس فى العربية، أما اسم أسبانيا فهو تحريف لاسم مدينة اشبيليا القديم « اسباليس ».

وقد استطاع القوط أن يبسطوا نفوذهم على شبه الجزيرة الأيبرية تدريجيًا، وفى عام ٤٧٦ اعترفت روما لملكهم يوريك بسيادته على أسبانيا. وكان نظام تلك المملكة اقطاعيًا، استحوذت فيه قلة من الأثرياء

على الأراضي الزراعية، واستأثرت بالمناصب العليا والامتيازات. أما سواد الشعب فقد عاني من الفاقة والحرمان. ومما زاد من عمق الفجوة بين الحكام ورعاياهم أن القوط اتبعوا فى بادئ الأمر مذهب الأسقف آريوس الذى أدانته الكنيسة الكاثوليكية واعتبرته هرطقة، ومن ثم رأى رعاياهم، وهم من الكاثوليك، أن حكامهم هراطقة.

تضافرت كل هذه العوامل لكى تمهد الطريق لقوة الإسلام الناهضة لكى تحرر أسبانيا من نير الحكم القرطى فى مطلع القرن الثامن الميلادى. وكان العرب آنذاك قد اتموا فتح شمال افريقيا. وفي ٧١١ عبر طارق بن زياد المضيق المعروف الآن باسمه، وفى ١٩ يوليو ٧١١ هزم طارق جيش رودريجو (لذريق) آخر ملوك قوط الغربيين فى وادى بكة، وقتل رودريجو فى المعركة. فسارع موسى بن نصير (فاتح المغرب) إلى الانضمام إلى طارق وأكملا فتح الأندلس حتى شارفا جبال البرانس التى تمثل الحدود الجنوبية لبلاد الفرنجة (فرنسا الحالية).

واستمر الحكم العربى لأسبانيا ثمانية قرون زاهرات كما تدل على ذلك آثاره المعمارية المنتشرة فى مختلف ربوعها، والتى مازالت أسبانيا تباهى بها حتى اليوم باعتبارها جزءًا نفيسًا من تراثها. كما أن أثر اللغة العربية واضح فى الأسبانية حيث تشكل اللغة العربية ٢٠٪ تقريبًا من كلمات اللغة الأسبانية، خاصة أسماء المواضع الجغرافية. وكانت أسبانيا المسلمة وطنًا لعدد من أبرز المفكرين والفلاسفة فى تاريخ الإنسانية وعلى رأسهم ابن رشد وابن خلدون وابن طفيل وابن ميمون وغيرهم.



منظر داخلي للمسجد الجامع بقرطبة

وعندما سقطت الخلافة الأموية فى دمشق، فر الأمير عبد الرحمن الداخل إلى أسبانيا، واستقل بها عن الخلافة العباسية وأسس هناك دولة أموية عاصمتها قرطبة، وتلقب أحفاده بلقب الخليفة. ولكن هذه الدولة تمزقت فيما بعد إلى دويلات عرف حكامها باسم ملوك الطوائف. ولم يستطع هؤلاء الملوك المتناحرون الصمود أمام زحف الممالك المسيحية الشمالية التى تحالفت ضدهم. ورغم مساعدة ملوك المرابطين والموحدين ظلت المدن الاسلامية تتساقط الواحدة تلو الأخرى. وكانت آخرها دولة بنى الأحمر فى غرناطة، التى استسلمت لجيوش فرديناندو وايزابيلا ملكى آراجون وقشتالة فى عام ١٤٩٢، وهو نفس العام الذى أوفد فيه هذان الملكان الملاح الايطالى كريستوفر كولومبوس لاستكشاف الطريق إلى الهند عبر المحيط الأطلنطى، فاكتشف كولومبوس أمريكا.

وفى القرن التالى تحولت أسبانيا بفضل حركة الكشوف الجغرافية والمصاهرات الاسرية إلى امبراطورية عالمية، فقد ورث شارل الخامس (شارلكان) حفيد ايزابيلا وفرديناندو عرش النمسا وممتلكاتها فى قلب أوربا وشمالها من جده لوالده، الأمبراطور مكسمليان. بينما تدفقت على خزائنه أنهار ذهب كنز « الأنكا » و « المايا » فى أمريكا الوسطى والجنوبية، ولم يكتف الأسبان بهذا بل انتزعوا السيادة على بعض المدن فى شمال افريقيا وأسسوا لهم مستعمرات فى جزر الهند الشرقية وأهمها الفلبين.

لكن الرخاء الذى تمتعت به أسبانيا خلال العصور التالية كان رخاءً



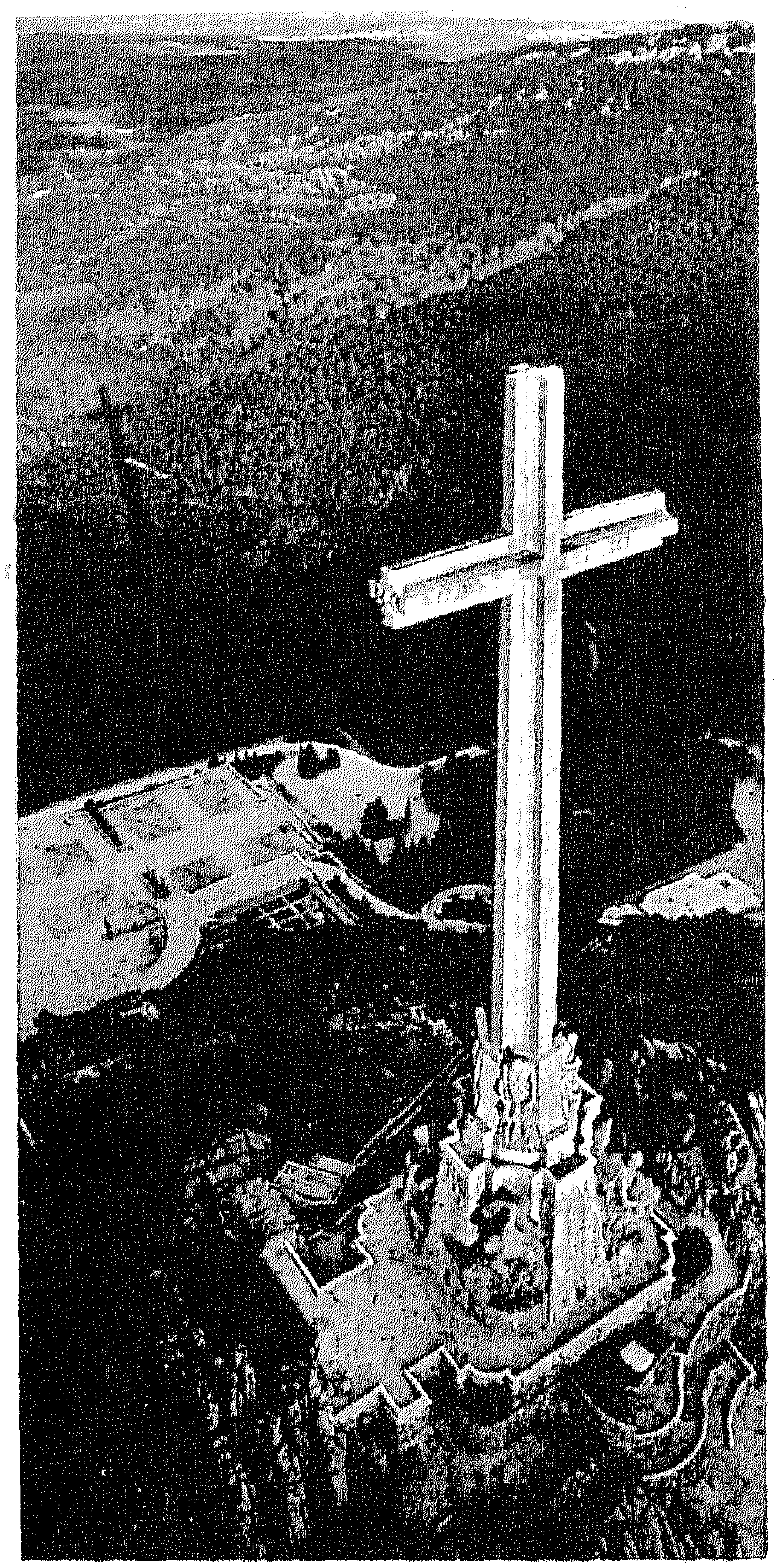
أميرة طفلة وحولها الأقزام الذين كانوا يتخذون فى البلاط الأسبانى كأدوات تسلية

كاذبًا، فقد زادت كميات الذهب والفضة المتاحة دون زيادة حقيقية فى الانتاج، مما أدى إلى تضخم ضاعف عمق الهوة بين الفقراء والأثرياء. وزاد على ذلك التعصب الأعمى الذى دفع أسبانيا إلى طرد بقايا المسلمين واليهود من أرضها، فحرمت نفسها من مجموعة من خيرة

الصناع والعلماء، كما خصصت محكمة أو مجلساً دينياً للتحقيق مع أى شخص يشتبه فى مروقه عن الدين، وهو ما يعرف بمحاكم التفتيش. وكان لهذا التزمت أثره فى إطفاء شعلة الحضارة فى أسبانيا. وبينما انطلقت أوربا فى ظلال حكوماتها الحرة الجديدة إلى صنع المستقبل، ظلت الحياة الفكرية والعلمية على ركودها فى أسبانيا. وضاعف من ذلك دمار أسطولها العظيم (الأرمادا) مما ترك لعدوتها انجلترا - البروتستنتية - سيادة البحار.

وقد احتل نابليون أسبانيا لفترة وجيزة بعد قيام الثورة الفرنسية، ولكن فى عام ١٨١٣ عاد الملك فردينادو التاسع إلى الحكم. غير أن المبادئ الحرة التي نادت بها الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية كان لها أثرها فى أسبانيا ومستعمراتها الأمريكية. فهبت الثورة فى أسبانيا، لكن الملك استعان بقوات أجنبية لإخمادها. ورغم قمع الثورة الأسبانية، لكن المستعمرات الامريكية بدأت سلسلة من الثورات المسلحة، وأخذت واحدة بعد أخرى تنال استقلالها. واستمرت النزعة الثورية تتأجج فى أسبانيا رغم قسوة قمع السلطة السياسية والكنيسة الكاثوليكية وأخيراً الجيش.

فقد تدخل الجيش لقمع ثورة ١٨٧٣ التى أعلنت قيام الجمهورية الأسبانية الأولى، وأعاد الملك ألفونسو الثانى عشر إلى العرش، وفى عهد خليفته الفونس الثالث عشر تفاقمت الأزمة الاقتصادية وتصاعدت حدة النزعات الانفصالية فى اقليمى الباسك وقطالونيا وانتشرت الأفكار الاشتراكية والشيوعية والفوضوية إلى جانب التيارات الليبرالية



والديمقراطية، فتدخل الجيش للمرة الثانية فى عام ١٩٢٣ وفرض الجنرال بريمو دى ريفيرا حاكما ديكتاتوريًا عسكريًا على البلاد حتى عام ١٩٢٩ حينما اضطر للاستقالة تحت وطأة الأزمة الاقتصادية التى استفحلت فى ظل الأزمة الاقتصادية العالمية. وفى عام ١٩٣١ أنتخب ألكالا زامورا أول رئيس للجمهورية الأسبانية، واختير دياز أزانيا، زعيم حزب « العمل الجمهورى » اليسارى رئيسًا للحكومة. وأدخلت اصلاحات عدة من أهمها فصل الكنيسة عن

نصب ضحايا الحرب الأهلية

الدولة وتحديد امتيازاتها ومنح اقليم قطالونيا الحكم الذاتي.

وكان من الطبيعي أن تثير التوجهات الليبرالية الجديدة ثائرة اليمين فتألف حزب الكتائب الفاشي (الفالانج) بزعامة خوزيه دي ريفيرا ابن أخي الديكتاتور العسكري السابق، واستطاع التحالف اليميني المدعوم من العسكريين إسقاط الحكومة اليسارية، وعاد اليمين بقوة بعد اقصاء أزانيا عن الحكم. لكن أزانيا عاد من جديد في انتخابات عام ١٩٣٦ إلى رئاسة الحكومة، وازدادت حدة التوتر بين اليمين واليسار، وأتى الجنرال فرانكو بقوات عسكرية من المستعمرات الأسبانية في منطقة الريف المغربية وجزر الكناري، وكان قدوم هذه القوات في ١٨ يوليو ١٩٣٦ الشرارة التي أندلعت على أثرها حرب أهلية ضروس بين الجمهوريين من الليبراليين واليساريين وبين الفاشيست من اتباع فرانكو. وتدفق المتطوعون من أنصار الحرية من جميع أرجاء العالم لمؤازرة الجمهوريين وكان بينهم من ألمع الكتاب والفنانين، ومنهم الكاتب الامريكي همنجواي الذي استلهم من أحداث الحرب روايته الشهيرة « لمن تدق الأجراس » والروائي البريطاني جورج أرويل الذي سجل تجربته في كتابه « رسائل من قطالونيا ». كما تدخلت ألمانيا النازية إلى جانب الفاشيست الأسبان وأرسلت طائراتها لتقصف المدن الأسبانية الحرة، وخلد ذلك الفنان الأسباني العظيم بيكاسو في لوحة شهيرة اسماها باسم جورنيكا، وهي بلدة أسبانية دمرتها الطائرات الألمانية.

ورغم بسالة الجيش الجمهوري، وصموده للحصار في مدريد ثلاث

سنين، لكن الحرب انتهت بانتصار الفاشية، ودخلت جيوش فرانكو مدريد عام ١٩٣٩ عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية. ورغم صداقة فرانكو لهتلر واعترافه له بالجميل، لكنه التزم الحياد أثناء الحرب لأن أسبانيا التي انهكتها الحرب الأهلية وفقدت فى خضمها مليونا من أبنائها لم يكن بوسعها الدخول فى حرب أخرى. ولذا لم يعمد الحلفاء بعد انتصارهم إلى التدخل فى أسبانيا لإنهاء الحكم الفاشى. واستمر فرانكو يحكم أسبانيا حتى وفاته عام ١٩٧٥. وقد خلفه فى حكم أسبانيا الملك خوان كارلوس حفيد الفونسو الثالث عشر ملكا على أسبانيا، وكان لهذا الملك الشاب من رجاحة العقل وصواب البصيرة ما جعله يدرك أن



الملك خوان كارلوس أول ملك يتنازل بمحض إرادته عن سلطته المطلقة ويعيد الديمقراطية إلى أسبانيا

فاشية فرانكو لم تعد تلائم العصر ولا تصلح لبلد كأسبانيا لها سهم وافر في الابداع الثقافي والفنى والفكرى، لذا فقد اختار أن يحكم بلده بالأسلوب الديمقراطى البرلمانى على النهج البريطانى، أى باعتبار الملك الحكم بين السلطات، لكن السلطة الحقيقية هى للشعب الذى ينتخب برلمانه ورئيس حكومته.

أسبانيا عبر المكان

تُشبّه أحيانا أيبريا بآسيا الصغرى (تركيا)، من حيث كونها شبه جزيرة مثلها، ولأنها جسر يربط أوربا بافريقيا مثلما تربط هى آسيا بأوربا، ولذا يطلق أحيانا على أيبريا اسم « أوربا الصغرى ».

تقع شبه جزيرة ايبريا فى أقصى جنوب غرب أوربا، وقبل أن يكتشف كولومبوس أمريكا كانت تسمى أحيانا « بنهاية الدنيا »، لأنها تقع على شاطئ المحيط الاطلنطى الذى كان يعرف فى الماضى- لكثرة ضبابه - ببحر الظلمات، وكان القدماء يظنون قبل اثبات كروية الأرض أن اليابسة تنتهى عنده، ويفصل ايبريا عن شمال افريقيا ممر ضيق تهيمن عليه صخرة ضخمة تسمى باسم فاتح الاندلس طارق بن زياد (جبل طارق). وتشغل أسبانيا الشطر الأعظم من أراضي أيبريا، بالاضافة إلى جزر البليار الشرقية وجزر الكنارى الجنوبية الواقعة قبالة الساحل الغربى لافريقيا. وتحتل البرتغال مساحة صغيرة فى الركن الجنوبى الغربى لشبه الجزيرة.

ويبلغ عدد سكان أسبانيا اليوم حوالى ٤٠ مليون نسمة، أما

مساحتها الكلية فتبلغ حوالى ٥٠٥ آلاف كيلومتر مربع. وتشغل قلب أسبانيا هضبة واسعة متوسط ارتفاعها ٧٠٠م وتعرف باسم لامسيتا، أى المائدة الصغرى، ويخترقها نهر تاجه الذى تقع على ضفتيه مدينة طليطلة القديمة، وبالقرب منها تقع العاصمة الأسبانية مدريد، وتحف الهضبة سلسلتان جبليتان هما كنتبريان وسيراموريتا، وتفصل السلسلة الأولى السهول الساحلية الشمالية والغربية عن داخل البلاد، وتعرف هذه السهول المطلة على المحيط الأطلنطى بمقاطعات الباسك وكنتبرية وجاليشا وإلى الغرب منها ترتفع جبال البرانس الشاهقة التى تفصل بين أسبانيا وفرنسا. أما سيراموريتا فكان العرب يسمونها بجبال قرطبة، على اسم المدينة الشهيرة التى اتخذها العرب عاصمة لأسبانيا الإسلامية. وإلى الجنوب منها، وعلى امتداد السواحل الجنوبية الشرقية المطلة على البحر المتوسط توجد سلسلة أخرى تعرف باسم سيرانيفادا أو جبال الثلج كما أسمتها المصادر العربية، لأن الثلوج كانت تكسو قممها العالية رغم ارتفاع درجة الحرارة فى هذه المنطقة التى تسمى أحيانًا- تندرًا- بمقلاة أسبانيا وبين جبال الثلج وجبال قرطبة ينحدر نهر الوادى الكبير (جوادلاكفير) ليصب فى المحيط الأطلنطى، وعلى ضفتيه تقع مدينتا قرطبة واشبيلية الشهيرتان. ويعرف الأقليم الجنوبى هذا باسم الأندلس كما ذكرنا من قبل.

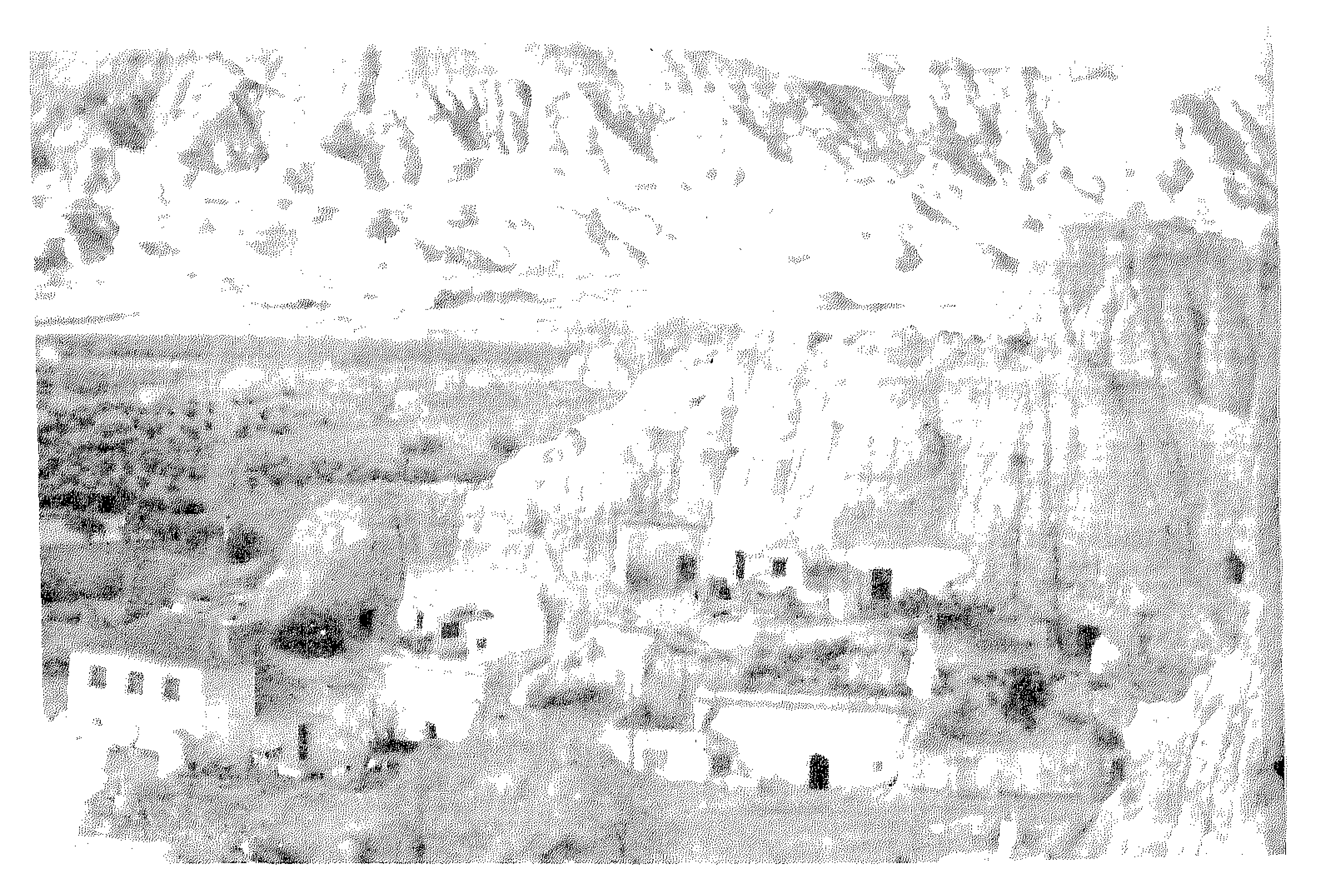
أما الساحل الشرقى لأسبانيا المطل على البحر المتوسط فتفصله عن الهضبة الوسطى سلسلة الجبال الأيبرية، والقسم الشمالى من الساحل يعرف باسم اقليم قطالونيا، وقد ضم هذا الاقليم إلى أسبانيا

فى عهد فيليب الخامس عام ١٧١٤م، وقد ناضل سكانه طويلاً للاستقلال عن أسبانيا واستبسلوا فى القتال ضد القوات الفاشية أثناء الحرب الأهلية، وبعد تولى الملك خوان كارلوس العرش منح هذا الأقليم حق الحكم الذاتى. ومن أشهر مدنه مدينه برشلونة التى نظمت فيها مسابقة كأس العالم الأخيرة، وتعتبر أهم موانى أسبانيا.

وقبالة الساحل الغربى تقع جزر البليار التى تتبع أسبانيا منذ القرن الرابع عشر، وهى تؤلف أرخبيلاً من خمس جزر كبيرة و ١١ جزيرة صغيرة، وأهم هذه الجزر مايوركا ومينوركا وعاصمة هذا الاقليم هى بلما دى مالوركا، ومساحة هذه الجزر مجتمعة تقدر بحوالى ٥٠١٤ كيلو متراً، وعدد سكانها يزيد على النصف مليون نسمة.

وإلى الجنوب قبالة الساحل الأفريقى الغربى تقع جزر الكنارى فى المحيط الأطلنطى على بعد مائة كليومتر تقريباً من الشاطئ المغربى، وهى تشكل أرخبيلاً من سبع جزر كبيرة وعدد من الجزر غير المسكونة مساحتها مجتمعة ٧٢٧٣ كيلو مترا تقريباً، وعدد سكانها يقدر بحوالى مليون و ٤٠٠ ألف نسمة، وأهم جزرها تناريف وجران كناريا وفورتافنتورا وعاصمتها لاس بالماس.

وأدى هذا التنوع الكبير فى التضاريس إلى تباين كبير فى المناخ بين أقاليم أسبانيا، فالمنطقة الشمالية الغربية (اقليم الباسك وجليقة) غزيرة المطر مثل سائر سواحل الأطلنطى، وقد يصل منسوب المطر فيها إلى ثلاثة أمتار فى المناطق المرتفعة التى تكسوها الغابات الصنوبرية، أما اقليم قطالونيا والسواحل الشرقية فمناخها مطير فى الشتاء جاف



قرية منقورة فى الصخر فى جنوب أسبانيا حيث تدفع شدة الحرارة السكان إلى تفضيل هذا النوع من البيوت على المساكن المبنية

فى الصيف مثل سواحل البحر المتوسط، وأما المناطق الداخلية المحجوبة وراء الجبال العالية فأقل مطراً وتعتمد فى الرى على الأنهار المنحدرة من المناطق الجبلية، وتزداد الحرارة بوجه عام فى الجنوب لاسيما فى منطقة اشبيلية/قرطبة حيث قد تصل إلى أكثر من ٥٠

درجة مئوية فى فصل الصيف أما فى مدريد التى تمثل مركز البلاد فقد تصل إلى ٤٤ درجة مئوية فى الصيف، أما منطقة جزر الكنارى فهى مدارية.

هذا التنوع المناخى الكبير ووفرة الموارد المائية من الأمطار والأنهار جعلت أسبانيا من البلدان الزراعية الهامة حيث تزيد مساحة الأرض المزروعة على ٢٧ مليون هكتار، ويمكنك أن تقدر عظم هذه المساحة إذا علمت أن الهكتار يعادل ١٠ آلاف متر مربع أى حوالى فدانين ونصف. وإلى جانب الحبوب والفواكه والخضراوات تزرع أسبانيا القطن وقصب السكر فى المناطق الجنوبية، وقد استعانت فى مطلع هذا القرن بخبراء من مصر لإدخال زراعة القطن فيها، ولكن قطنها أقل جودة من القطن المصرى.

ورغم أن الصناعة حديثة نسبيًا فى أسبانيا، إلا أنها حققت منذ الستينات تقدمًا كبيرًا فى صناعة السيارات والسفن والصناعات الميكانيكية والكيميائية فضلاً عن الصناعات الغذائية والمنسوجات، وتتركز الصناعات الميكانيكية بوجه عام فى الشمال فى اقليمى الباسك وقطالونيا وحول العاصمة مدريد، أما فى الجنوب فيعتمد النشاط الصناعي أساسًا على الصناعات الغذائية والمنسوجات.

ولكن أهم صناعة في أسبانيا هى السياحة، وليس هذا بغريب، فأسبانيا بلد فريد له طابعه الخاص الذى أسهمت عوامل عدة فى تشكيله منها تنوع البيئات المناخية والطبيعية ومنها تعدد المصادر الحضارية التى شكلت تراثه العريق ولكن أهمها الحس الفنى البديع

لأهله، والذى يتبدى لنا فى الموسيقى والأغانى والرقصات الأسبانية الساحرة والابداع الأدبى والفنى، فمن منا لم تطربه أنغام الجيتار الأسبانى أو تهزه ايقاعات الفلامنكو أو تبهره لوحات جويا وفلايسكويز وبيكاسو وسلفادور دالى وخوان دى ميرو ومن منا لم تبهجه مغامرات دون كيخوته، ومن منا لم تسحره أغانى التروبادور وأشعار لوركا. إن أسبانيا هى أرض العاطفة والمغامرة، إنها الأرض التى أنجبت وخلدت أسطورة دون جوان.

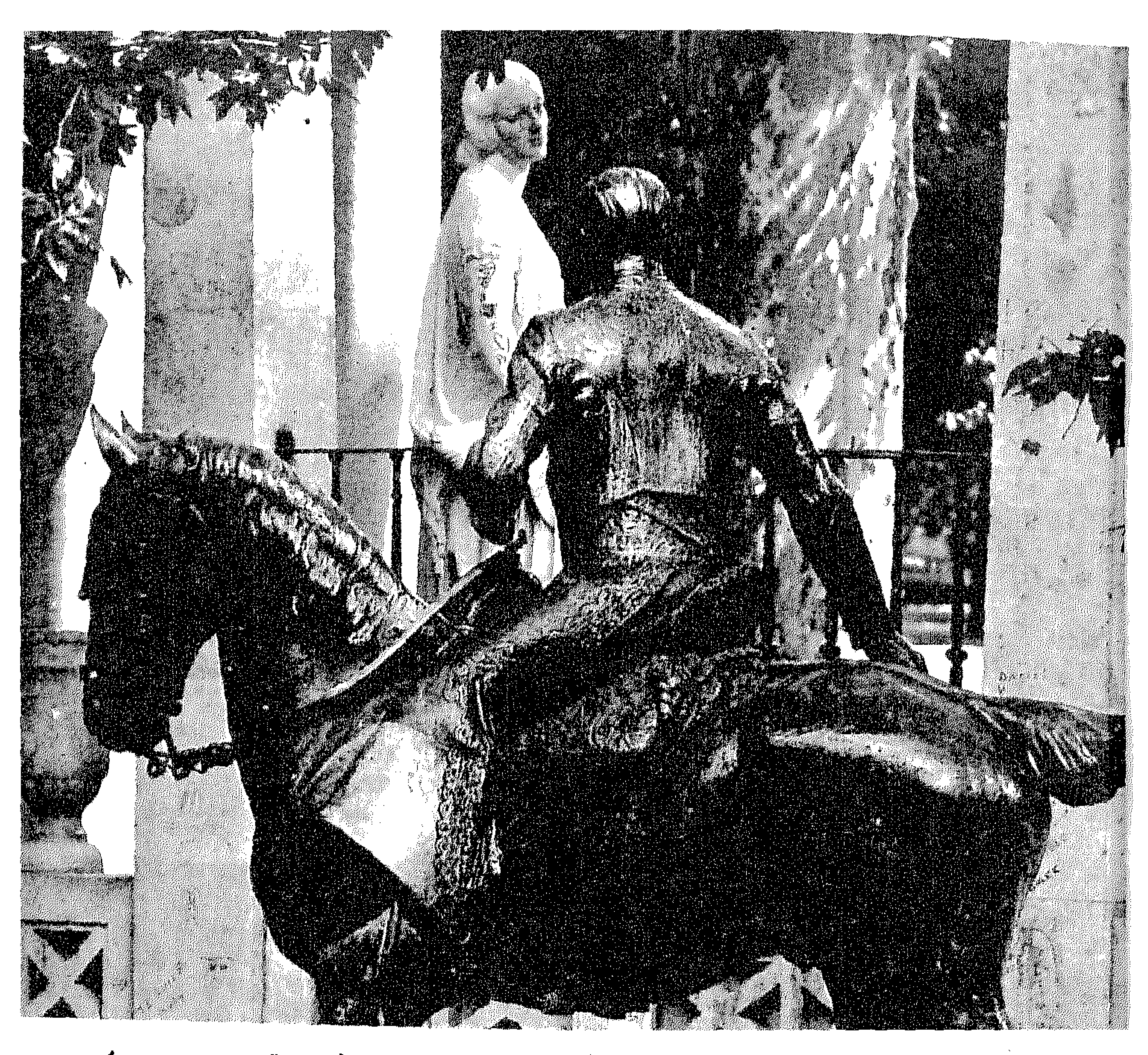
مدريد

فى يوم مشمس من أيام شهر مايو كان لقائى بكارمن قرب بوابة الشمس فى قلب مدريد.. ولكن مهلاً أيها القارئ، فليست هذه بداية قصة عاطفية على غرار الأوبرا الشهيرة التى تحمل نفس هذا الاسم، والتى تدور أحداثها فى نفس المكان ولكن قبل قرنين من الزمان إبان الاحتلال الفرنسى لأسبانيا. وكانت كارمن بطلة هذه الأوبرا فتاة غجرية ساحرة تستطيع حتى اليوم أن ترى مثيلاتها فى المدن الأسبانية يحترفن الرقص، ثم قراءة الطالع إذا تقدمت بهن السن. وقد أحبها جندى فرنسى، وترك من أجلها الجيش وتحول إلى قاطع طريق، ثم قتلها بعد أن تبين له أنها خدعته.

كانت حرارة شمس مدريد فى ذلك اليوم كفيلة بأن تبخر أى إحساس بالحب، ناهيك عن أن كارمن هذه كانت سيدة وقورا وأرملة محارب جسور فى جيش الجمهورية اشترك فى الدفاع عن مدريد إبان حصارها الذى استمر ثلاث سنوات (١٩٣٦-٣٩)، وصدر عليه الحكم

بالإعدام بعد أن استولى فرانكو على المدينة، ولكنه نجح فى الفرار من أسبانيا إلى فرنسا ومنها هاجر عشية الحرب العالمية إلى الولايات المتحدة حيث التقى بكارمن، مدرسة التاريخ مكسيكية الأصل، التى جاء أجدادها من أسبانيا إلى العالم الجديد قبل ثلاثة قرون بحثًا عن كنوز المايا والانكا، ثم انتهى بهم الأمر إلى احتراف الزراعة فى سهول المكسيك ومنها هاجر الأحفاد إلى جارتهم الكبرى الولايات المتحدة ليحققوا حلم آبائهم فى الثراء السريع، ولكن الحال انتهى بهم إلى العمل فى مزارع الكروم ومعاصر العنب، أما كارمن، فكانت أسعد حظًا، إذ أكملت دراستها، ثم ذهبت إلى أسبانيا قبيل الحرب الأهلية سعيًا لاكتشاف جذورها. لكن الحرب أعادتها إلى الولايات المتحدة، ولم تستطع الرجوع إلى أسبانيا حتى تخلصت من الفاشية.

كان لقاؤنا مصادفة بالقرب من بوابة الشمس، أو بويرتا دل سول، وهو ميدان عظيم تتفرع منه عشرة شوارع كبرى فى قلب المدينة، وكنت أقصد ميدان بلازا مايور أشهر ميادين العاصمة التاريخية، ولكننى ضللت الطريق، وهو أمر شديد الخطورة فى أسبانيا لأن الأسبان، كغيرهم من شعوب أوربا، يحتفون بلغتهم احتفاءً عظيمًا، ولا يرون ضرورة فى تعلم غيرها لغير المتخصصين رغم أنهم بلد سياحى كبير، فجميع الكتب الهامة التى تصدر باللغات الأخرى تترجم إلى الأسبانية، وهو أمر جدير بأن نلتفت إليه فى مصر، والعالم العربى عامة، حيث بات من الضرورى علينا جميعًا أن نتعلم اللغات الأجنبية لأننا لم نعد نجد حاجتنا من المعارف باللغة العربية، ومن ثم اضمحل شأن العربية



تمثال لفارس اسبانى ينشد الأشعار أسفل شرفة محبوبته (حديقة ريترو بمدريد)
وكانت اسبانيا موطن شعراء التروبادور أو الشعراء الجائلين الذين تأثروا بالتراث
الرومانسى العربى خاصة والموشحات الأندلسية

وأصبحت أهميتها ثانوية مع الأسف.

إنك إن ضللت الطريق، فمن الصعب عليك أن تجد من يرشدك ما لم تكن تتكلم الأسبانية أو تتقن لغة الإشارة وبينما أنا في حيرتي، وجدت سيدة عجوزا تسألني شيئًا باللغة الأسبانية لم أفهمه جيداً، ولكن أدركت أنها تستفسر عن الطريق إلى مكان ما، فحاولت على قدر الإمكان أن اكتم ضحكة كادت أن تفلت مني وأنا أعجب لتصاريف القدر الذي جعل هذه السيدة تترك الجميع لتسترشد بي أنا الغريب، ولم أكن أدرك أنها النجدة ساقتها لي العناية السماوية.

أوضحت لها بالقليل من الكلمات الأسبانية التي أعرفها أنني لا أتكلم الأسبانية، ففوجئت بها تسألني بانجليزية سليمة من أين أنا. وقد أبدت سعادة حقيقية حينما علمت أنني مصري لأن أبناء أمريكا اللاتينية يقدرون لمصر دورها في مساندة حركات التحرر من الاستعمار في جميع بلدان العالم الثالث، كما أن النزعة الدينية القوية لدى الأسبان وأبناء عمومتهم الأمريكيين جعلتهم يؤيدون العرب ضد اسرائيل، لأنهم لا يتصورون أن يسيطر حفدة من تآمروا على السيد المسيح عليه السلام على الأراضي المقدسة. وكانت أسبانيا هي الدولة الأوربية الوحيدة التي لم تقم علاقات دبلوماسية مع اسرائيل طيلة فترة الصراع العربي الاسرائيلي.

إنك في أسبانيا لا تشعر بالغربة، فالأسبان شعب ودود يتميز بالكرم وحرارة العاطفة كسائر الشعوب الجنوبية، وترى هذا عندما يلتقي صديقان، فيتعانقان ويربت كل منهما على ظهر الآخر تعبيراً عن المودة

مثلما نفعل نحن فى مصر والعالم العربى، وتلمس رقة المشاعر وحرارتها وصدقها فى أشعار أسبانيا، وأشهرها قصائد التروبادور أو الشعراء الجائلين التى يقال إنها تأثرت بفن الموشحاتالعربى.

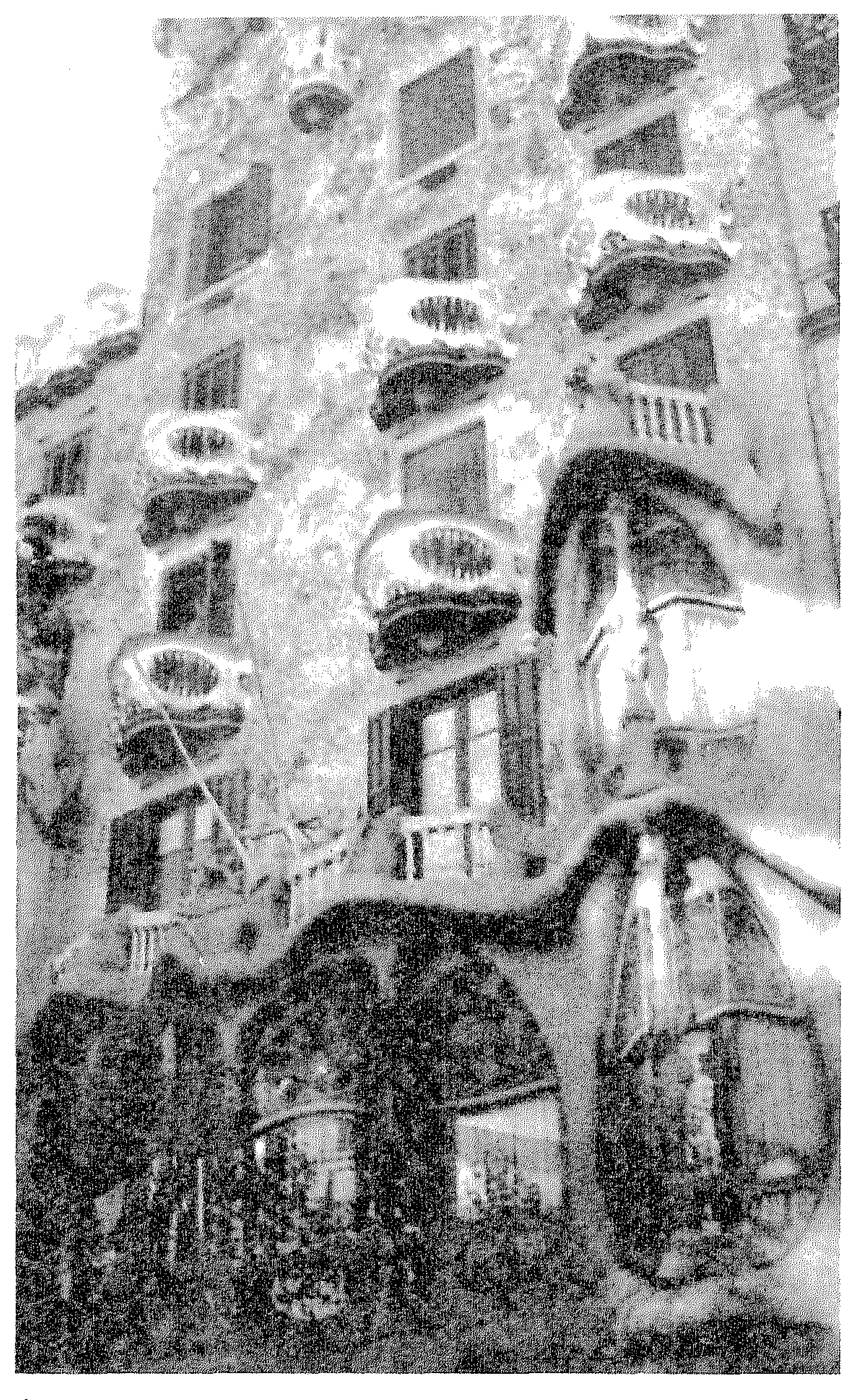
ومدريد هى أعلى عاصمة أوربية، فهى مبنية على الهضبة الوسطى (٦٦٠ م تقريباً فوق سطح البحر) جنوبى جبال سيرا جوادرما، بالقرب من نهر تاجه. وقد دهشت عندما علمت من كارمن أن العرب هم الذين أسسوها، وكانت تعرف وقتهم بمجريط، ثم استولى عليها الفونسو السادس ملك ليون وقشتالة عام ١٠٨٣، وكان توسط موقعها فى أسبانيا وحصانته الطبيعية وبعده عن مناطق النفوذ الاقطاعية للأمراء عوامل دفعت ملوك قشتالة إلى الاهتمام بها وتفضيل عقد الاجتماعات والمجالس الكبرى بها، ومن هنا أخذت أهميتها السياسية تزداد حتى أصبحت العاصمة فى عهد فيليب الثانى الذى أسس فيها قصر الاسكوريال الشهير ليكون مقراً للإدارة وضريحاً لملوك أسبانيا.

ويقع قصر الاسكوريال فى شمال غرب مدريد، وهو من أكبر وأشهر قصور أوربا، ويتألف من شبكة معقدة من الأبنية المتقاطعة التى تحصر فيما بينها أفنية، وتهيمن عليه أبراج وقبة دير عظيم يعبر عن ورع ملوك أسبانيا وشدة تعلقهم بالديانة المسيحية. وقد اهتم هؤلاء الملوك مثل سائر الكاثوليك بجمع رفات القديسين واحتفظوا بها فى صناديق خاصة من المعادن الثمينة شكلت بمهارة فنية، وحفظوها فى خزائن خاصة تعرف بخزائن الذخائر المقدسة، وهى تضم إلى جانب الرفات تماثيل لهؤلاء القديسين.

وقد استغرق بناء القصر حوالى عشرين عاماً، وبدأه المعمارى خوان باوتيستا الطليطلى ثم أكمله خوان دى ايرارا، وعندما سألت كارمن عن الحكمة من هذا التصميم المتقاطع، فاجأتنى بقولها إنه أعد بشكل يشبه الشبكة الحديدية التي يشوى عليها اللحم. فلما أبديت لها دهشتى، قالت لى إن والى روما فى القرن الثالث الميلادى أقلقه تعاظم نفوذ الكنيسة المسيحية، فاعتزم مصادرة ممتلكاتها، واستدعى القديس لورنس، وكان من كبار أساقفة المدينة، وطلب منه احضار كنوز الكنيسة، فأتى إليه القديس لورنس فى اليوم التالى بمجموعة من الفقراء وقدمهم له قائلاً : « هؤلاء هم كنز الكنيسة.» فغضب الوالى وأمر بشى القديس حيًا على شبكة معدنية، ومن ثم أصبحت الشبكة رمزًا لهذا القديس تدل على تضحيته.

ويضم الاسكوريال مكتبة ضخمة تضم مجموعة نفيسة نادرة من المخطوطات العربية، ومن المعروف أن أسبانيا من البلدان الرائدة فى مجالات الدراسات الاستشراقية فى الغرب، والاهتمام بتعلم اللغة العربية وترجمة كتبها قديم، إذ كان الطلاب يفدون من أوربا وشمال أسبانيا إلى الحواضر العربية للتعلم والترجمة، ومن أسبانيا وصلت أفكار ابن رشد وابن ميمون وابن خلدون وغيرهم من قادة الفكر الذين ساهموا فى تبديد ظلمات العصور الوسطى والتمهيد لحضارة العصر الحديث.

وبالاسكوريال متحف فنى كبير يضم مجموعة هامة من اللوحات الأسبانية والعالمية التى كانت فى الأصل من مقتنيات ملوك أسبانيا.



بيت من تصميم المعمارى الشهير «جاودى» حاول فيه التحرر من قيود التصميم الكلاسيكى

غير أن أكبر متاحف العاصمة هو متحف برادو الذى يقع بالقرب من ميدان بويرتا دل سول، وهو يضم أعظم مجموعة من لوحات المصورين الأسبان ومن أبرزهم فيلاسكويز (١٥٩٩-١٦٦٠) الذى تتلمذ على أيدى أفضل فنانى عصر النهضة الايطالية وعمل مصوراً خاصاً فى البلاط الملكى فى عهد فيليب الرابع، ومن أشهر لوحاته صورة الأميرة الطفلة مرجريتا مع مجموعة من الأقزام، حيث كان ملوك أسبانيا مثل غيرهم من ملوك الدنيا يلحقون ببلاطهم مجموعة من الأقزام لتسليتهم هم وحاشيتهم برقصاتهم وحركاتهم المضحكة.

ويضم المتحف أيضاً لوحات لجويا (١٧٤٦-١٨٢٨) وكان في بادئ الأمر مصوراً ملكيا فى بلاط الملك شارل الرابع مثل فيلاسكويز، ولكنه تمرد على حياة البلاط وصور فى مجموعة من اللوحات والاسكتشات والرسوم واقع أسبانيا المرير، وقد عاصر الاحتلال الفرنسى وثورة مدريد على الفرنسيين وسجل ذلك فى لوحاته. ويضم المتحف أعمالاً لألجريكو (١٥٤٠-١٦١٤)، وهو اسم شهرة للفنان اليونانى دومنيكوس تيوتوكوبولس ومعناه « الاغريقى » أو « الجريجى » كما كنا نسمى اليونانيين قديماً فى مصر. وقد استقر فى مدينة طليطلة عام ١٥٥٧ حيث أبدع مجموعة من اللوحات الدينية والصور الشخصية للنبلاء ورجال البلاط، وتتميز لوحاته بمسحة دينية صوفية جعلته يطيل فى الشخوص ليخرجها عن المألوف أو إطارها المادى ويضفى عليها لمسة روحانية يؤكدها بألوانه الخافتة والظلال التى تضفى جواً من الوقار والغموض على اللوحة. ويباهى المتحف كذلك بلوحة جورنيكا (انظر

أسبانيا عبر الزمان) التى رسمها بابلو بيكاسو (١٨٨١-١٩٧٣) أشهر فنانى القرن العشرين، وقد ولد فى مالقا باقليم أندلُسيا (الأندلس) ودرس فن التصوير فى برشلونة ثم انتقل إلى باريس حيث استقر وطور بالتعاون مع الفنان الفرنسى جاك بيراك مدرسة من أشهر مدارس الفن الحديث وهي التكعيبية. وكان مناوئا لحكم فرانكو، ورفض العودة إلى أسبانيا الفاشية كلون من ألوان الإدانة للنظام القائم هناك وظلت لوحته جونيكا هذه معروضة فى نيويورك ولم تعد إلى أسبانيا إلا عام ١٩٨١ بعد سقوط الفاشية بناءً على وصيته.

ويضم هذا المتحف حوالى ٨ آلاف لوحة، ولكن مساحته على ضخامتها لا تتيح له عرض جميع روائعه. والحق أن مدريد وأسبانيا كلها متحف فنى حى، فالميادين تغص بالتماثيل والنصب التذكارية والنافورات البديعة التى يبدو أنها قد ورثت طرازها من العمارة الأندلسية الإسلامية، ومن أروعها تمثال الربة سبيلى التى ترمز للطبيعة البرية، وقد صورها الفنان فى هيئة امرأة تركب عربة تجرها الجياد وسط مجموعة من النافورات المتألقة بالضياء (ميدان كستلر). ورغم قوة العاطفة الدينية والعقيدة الكاثوليكية فى أسبانيا لكن العاصمة تزدان بالكثير من تماثيل أرباب الأساطير الاغريقية المماثلة وكذلك الشخصيات الأدبية ومن أشهر وأطرفها تمثال الأديب العظيم سرافنتس (أو ثرفانتس) مؤلف رواية دون كيخوته، ونرى أمامه تمثال دون كيخوته بزى الفرسان الشهير على حصانه الأعجف ومن خلفه تابعه سانشو بانزا الحلاق السمين، على حماره.

لكن أشهر ميادين مدريد هو « مايور » الذى تحيط به مجموعة من المنازل القديمة التى تعود إلى القرن السابع عشر، وقد شهد هذا الميدان الكثير من أحداث التاريخ ففيه كان يحتفل بتتويج الملوك والاحتفال بالأعياد الدينية وفيه كانت تنفذ أحكام الإعدام، وبالقرب منه القصر الملكى الذى بنى عام ١٧٦٤ ليحل محل الأسكوريال. وفى وسط الميدان تمثال للملك فيليب الثالث على صهوة جواد. واستخدم هذا الميدان كحلبة لمصارعة الثيران، وهى رياضة أسبانية قديمة وكان الرومان فى الماضى ينظمون مباريات للمصارعة مع الحيوانات المفترسة خاصة الدببة التى كانت تثير الفزع بوحشيتها وضخامة حجمها. والثور يرمز فى المعتقدات الشعبية للقوة والفحولة، ولذا فانتصار المصارع عليه يجسد قوة الإنسان وفحولته، لكن المصارع فى واقع الأمر لا يستخدم قوته، بل ذكاءه ورشاقة حركته، ففكرة مصارعة الثيران تقوم على مبدأ أساسى وهو أن الثور حينما يهاجم خصمه يندفع نحوه فى خط مستقيم لينطحه بقرنيه، فإذا انحرف الخصم برشاقة عن طريقه فى الوقت المناسب تجاوزه الثور الذى لن يستطيع الرجوع إلى مهاجمته إلا بعد أن يقطع مسافة معينة حتى يتمكن من أن يلف بجسمه ويستدير ليواجه الخصم. ولذا يستطيع المصارع البارع أن يستعرض رشاقته وهو آمن من قرون الثور، ويذهل المتفرجين حينما يظل رابضًا فى مكانه معرضًا صدره لقرون الثور حتى يوقن المشاهد بأنه هالك لا محالة، فإذا به ينحرف فجأة من موضعه فيندفع الثور الهائج إلى الأمام، ويتمالك الجمهور عندئذ الإحساس بالنشوى، فتتعالى الصيحات ويمطر الحاضرون أرض الحلبة بقبعاتهم الملونة التى

تتطاير فى الهواء فتشيع البهجة. ولا يعنى هذا أن الذكاء والرشاقة هما العنصران الأساسيان فحسب، فالمصارع فى حاجة إلى الشجاعة، لأنه إذا تحرك من موضعه قبل أن يصل الثور إلى ما يسمى بنقطة اللاعودة أو عدم القدرة على تغيير الاتجاه فسيسهل على الثور أن يسدد له طعنة قاتلة بقرنيه. ورغم خطورة هذه اللعبة، لكنها منتشرة فى أسبانيا، والمصارعون نجوم شعبيون كنجوم الكرة عندنا، وهناك الكثير من المدارس التى تعلم فن المصارعة، وفى بعض الاحتفالات تطلق الثيران الصغيرة، فى الشوارع حتى يتسلى الجمهور العادى بمصارعتها، وترى عندئذ مشهداً مفزعًا مضحكا حيث تنطلق الثيران فى الشوارع، وقد يحاول البعض مناورتها لكن الشجاعة لا تملكه عندما تقترب منه فيجرى من أمامها، ويعدو آخرون من خلفها وحولها للمشاهدة أو ليجربوا حظهم. ورغم الحوادث التى تقع لكن الأسبان يعتبرون ذلك تقليداً من تقاليدهم الوطنية العتيدة التى يباهون بها.

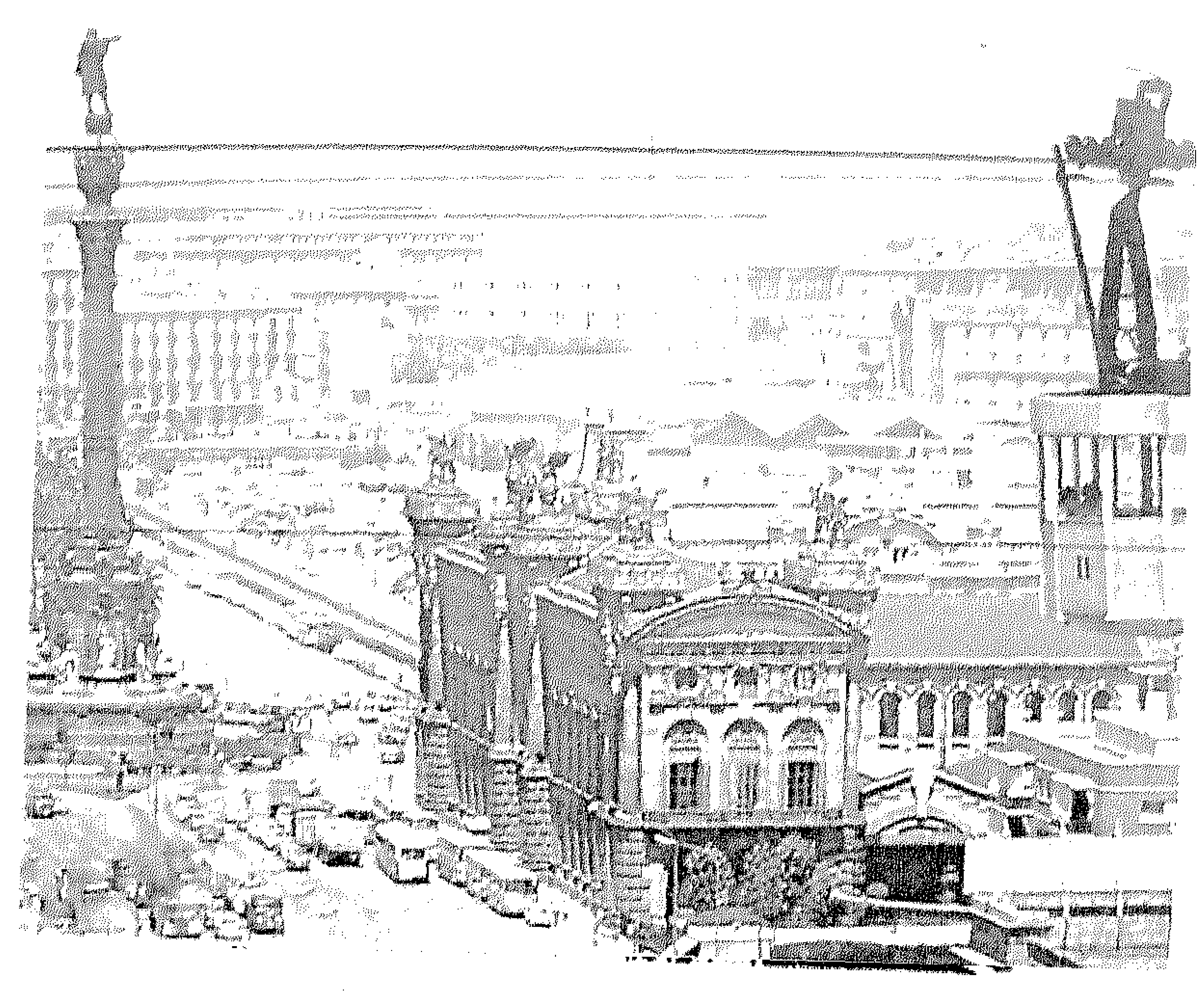
ولا يعنى هذا أن الأسبان شعب دموى، بل انهم شعب مرح عاشق للحياة محب للمغامرة، وهذا العشق الشديد للحياة يتبدى فى موسيقاه الشعبية الساحرة المعروفة باسم الفلامنكو. ولا يعرف أصل هذه التسمية على الدقة، ولكن العلماء يرجحون أن أغانيه وطريقة الأداء الموسيقى والحركات الراقصة هى مزيج من الموسيقى والرقصات العربية والأسبانية القديمة، والآلة الموسيقية الرئيسية هى الجيتار الأسبانى العادى وغالباً ما يلبس المغنى والعازف فى نفس الوقت سروالاً ضيقًا من أعلى متسعًا من أسفل وعادة ما يكون أسود ومطرزا بخيوط ملونة أو خيوط فضية، ويلبس قميصًا أبيض وصدارا أسود

مطرز أيضًا، أما الراقصة فتلبس فستانًا طويلاً واسعًا كثير الثنيات، وتعتمد فى الرقص علي ايقاع القدمين ودقات الصاجات الخشبية، والغناء شجى ملئ بالآهات كالموسيقى العربية.

والعقيدة الكاثوليكية هى الغالبة على الشعب الأسبانى، وتوضح كثرة الكنائس والأديرة مدى تغلغل الدين فى نفوس أبناء الشعب. وكان التعصب الدينى وقود الحرب ضد الممالك العربية فى الاندلس، وامتد هذا التعصب ليشمل اليهود والمسيحيين من المذاهب الأخرى، خاصة البروتستانت. وبعد سقوط غرناطة طرد العرب واليهود من أسبانيا، ولم يسلم من ذلك حتى من ارتضوا تغيير ديانتهم واعتناق المسيحية، وهم من أطلق عيهم اسم المورسكيين.

وتجسدت روح هذا التعصب ضد كل ما هو كاثوليكى فى محاكم التفتيش التى لم تتردد فى إعدام من تثبت عليه تهمة الهرطقة أو ممارسة السحر، وامتد هذا لأصحاب الآراء الحرة والعلماء. وكانت المحكمة تلجأ إلى أساليب التعذيب الجهنمية لانتزاع الاعترافات من المشتبه فيهم، فإذا اعترفوا بذنبهم، وهو أمر لم يكن منه مفر، قضت بإعدامهم حرقا، وكان هؤلاء المذنبون يسيرون فى مواكب إلى الميادين العامة حيث ينفذ فيهم الحكم على مرأى من الجميع. وكان من أشهر من تولوا رئياسة محكمة أو « ديوان » التفتيش الراهب الدومنيكى توماس دي توركويمادا (١٤٢٠-١٤٩٨).

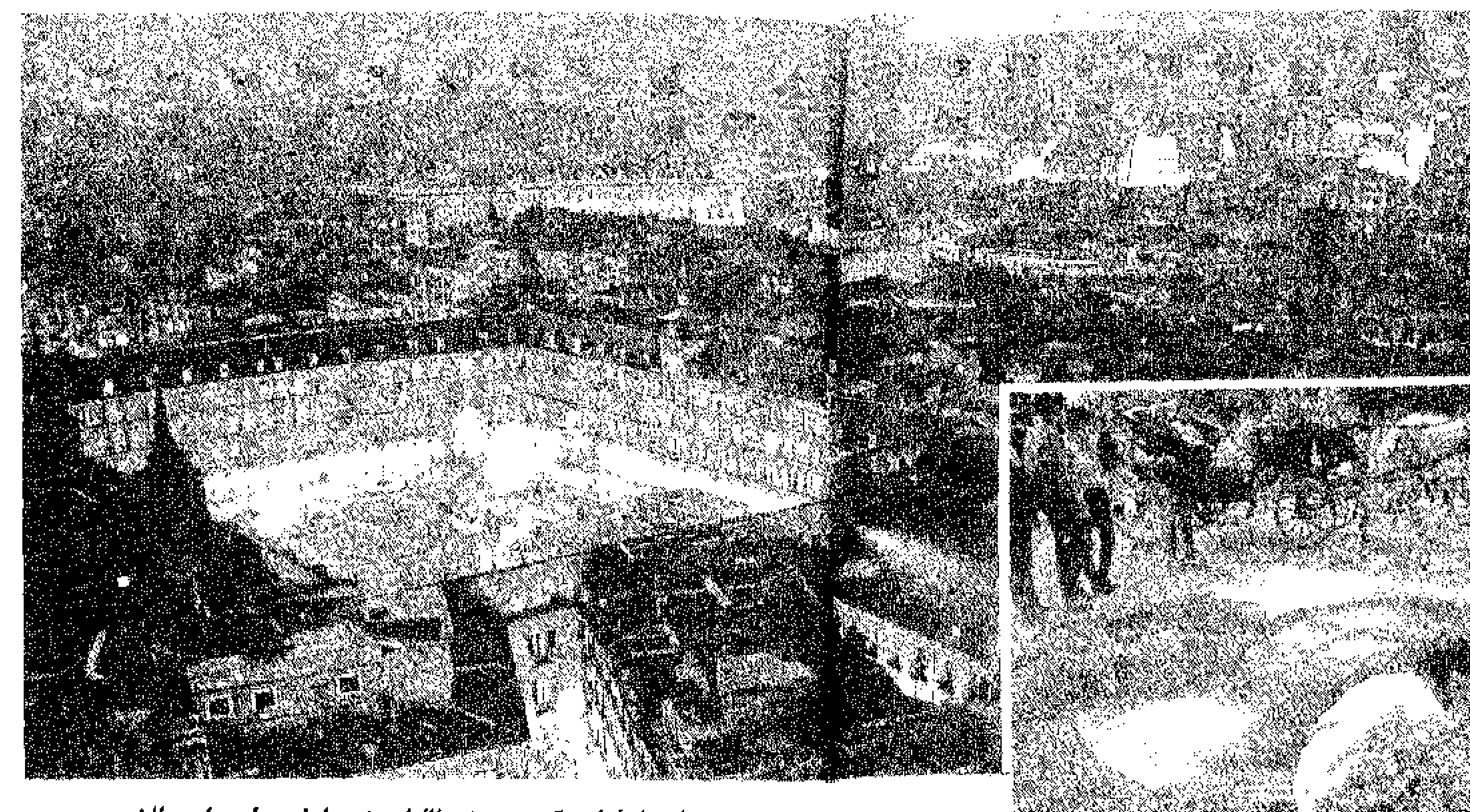
ولكن حدة التعصب هذه أخذت تقل بمرور الوقت مع انتشار الأفكار التحريرية والتعليم والمعرفة، وانقلب الحال، فأصبح الأسبان فى القرن العشرين أشد شعوب أوربا تأييداً للعرب فى نضالهم ضد الاستعمار،



ميناء برشلونة يتوجه تمثال كريستوفر كولمبس



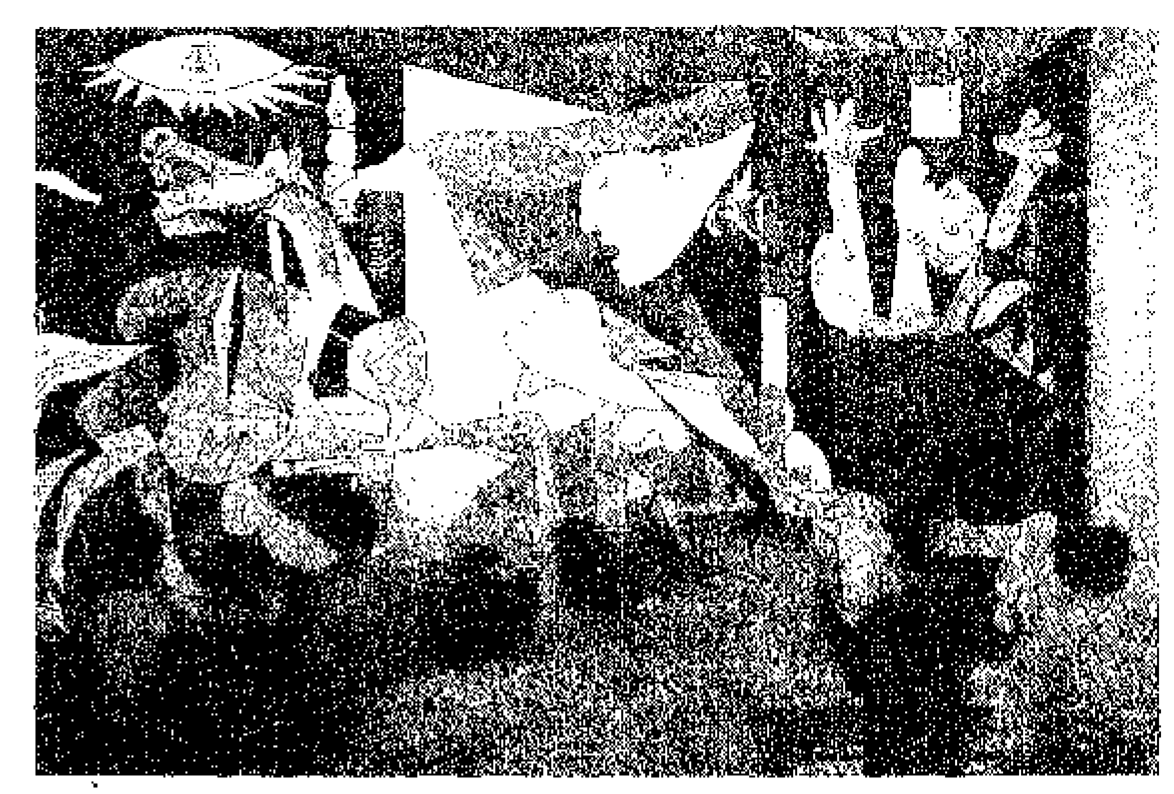
فناء منزل فى جنوب أسبانيا يوضح مدى تغلغل تأثير العمارة العربية هناك ومدى ولع الأسبان بالزهور



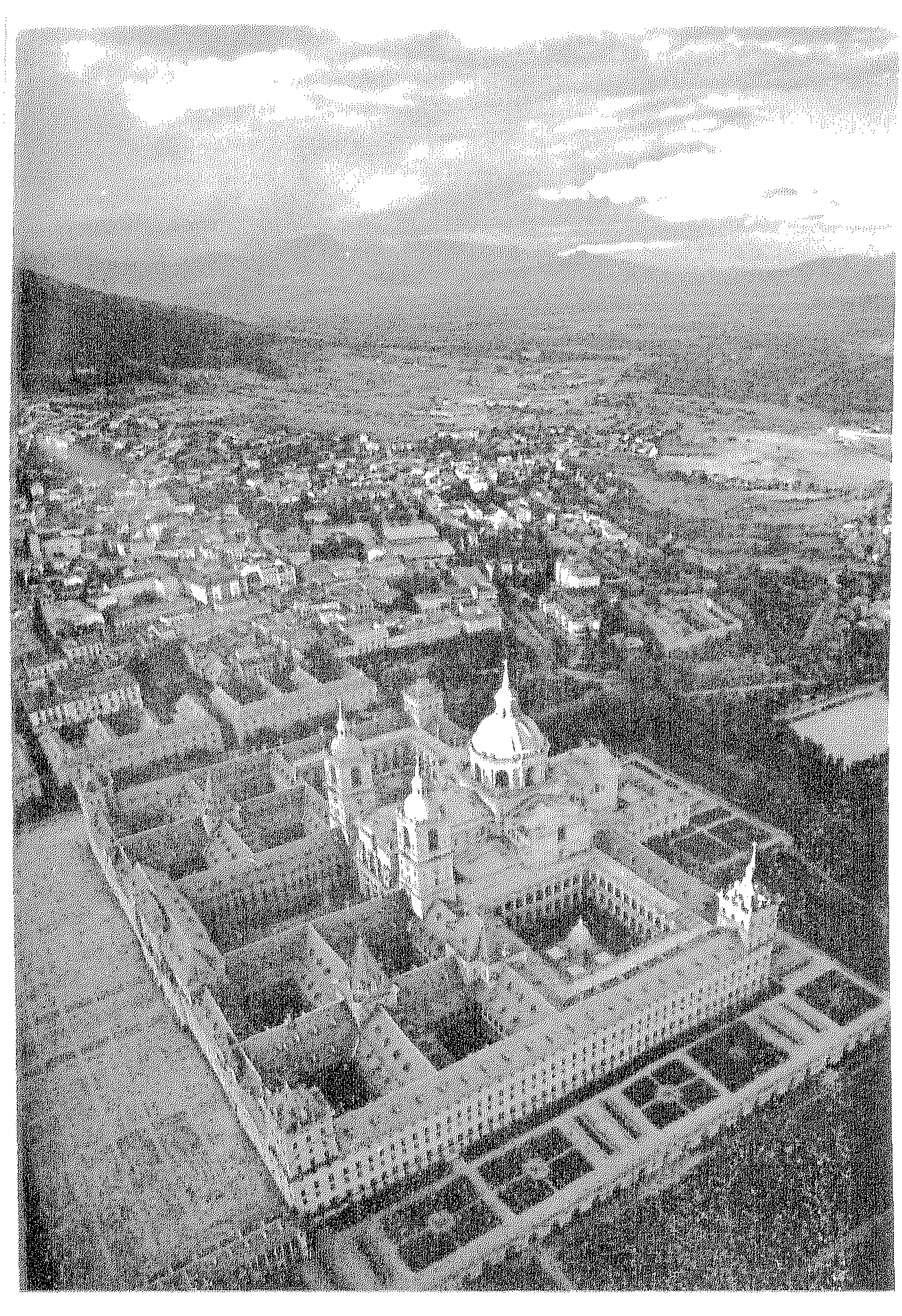
بانوراما لمدينة مدريد فى الليل يتوسطها ميدان مايور الشهير



يتبارى الفنانون فى استعراض مهاراتهم فى شوارع مدريد
مثل هذا الفنان الذى يقلد بألوان الطباشير لوحة الموناليزا الشهيرة



لوحة جورنيكا لبيكاسو التى عبر فيها عن ويلات الحرب الأهلية
مازالت تجتذب انتباه المشاهدين



قصر الإسكوريال فى شمال مدريد تهيمن عليه كنيسته الضخمة حيث ترقد رفات
ملوك أسبانيا ويضم القصر إلى جانب ذلك ديرا ومكتبة ومتحفا فنيا شهيرا

ولا أدل على ذلك من أن حكومة أسبانيا قد أيدت الثورة الجزائرية ضد فرنسا الكاثوليكية، ذلك لأن إنسان هذا العصر لم يعد من السهل خداعه بالشعارات الزائفة التى تتقنع وراء الدين لسلب حريات الآخرين، بل بات يدرك إدراكًا واضحًا أن الدين مبادئ أخلاقية سامية تدعو إلى الإخاء والمحبة بين أبناء البشر بما يسمو فوق حدود الوطن أو الجنس أو اللغة.

وقبل أن نغادر مدريد فى طريقنا إلى اقليم قطالونيا لنزور مدينة برشلونة، أكبر موانئ أسبانيا، والمدينة الثانية فيها رأيت صليبًا اسمنتيًا عملاقًا قائمًا فى أقصى الطرف الشمالى الغربى للمدينة فى منطقة تعرف باسم وادى لوسى كايدوس، وحينما اقتربنا منه لاحظت أن كارمن قد أشاحت بوجهها عنه، وقد دهشت لذلك، فعهدى بها امرأة متدينة، ولكنى علمت فيما بعد أن هذا الصليب العملاق (١٥٠ م) ليس إلا النصب التذكارى الذى أقامه الجنرال فرانكو لضحايا الحرب الأهلية، وقد دفن تحته، ولذا يعتبره الكثيرون نصبًا فاشيًا يرمز لحقبة من الزمان يريدون نسيانها.

سرقسطة

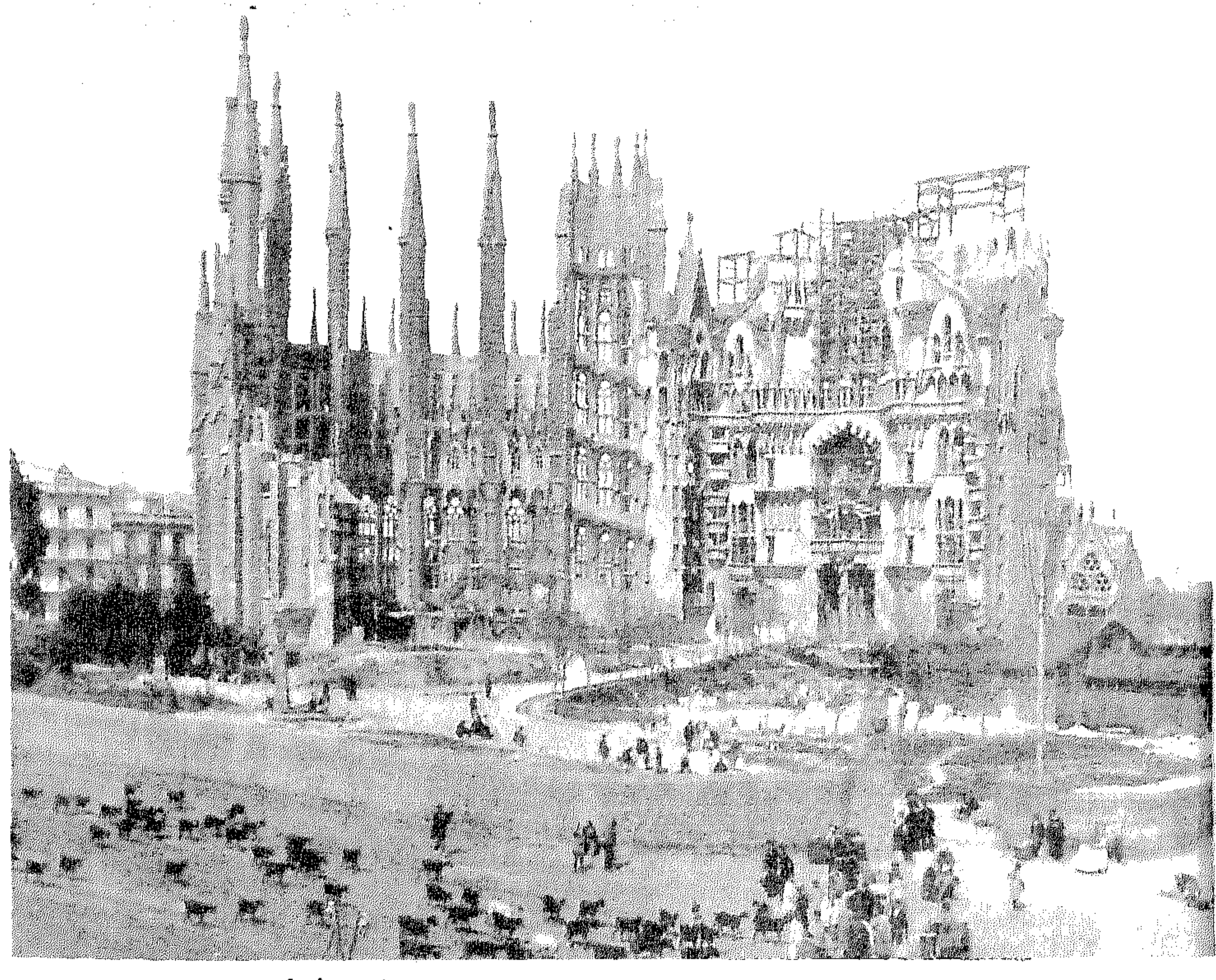
اتجهنا إلى الشمال الشرقى عبر أراضى هضبة لامسيتا وجاوزنا الجبال الايبرية وانحدرنا إلى وادى نهر الابرو الذي ينبع من سلسلة الجبال الكنتبرية فى أقصى الشمال الغربى ليصب فى مياه البحر المتوسط على الساحل الشرقى لأسبانيا. وأرض هذا الوادى محصورة

بين الجبال الايبرية من الجنوب وجبال البرانس من الشمال، وتجود فيها زراعة القمح والحبوب، وتعرف هذه المنطقة باسم أراجون، وهى المملكة القديمة التى كان يحكمها فرناندو الذى تزوج من ايزابيلا ملكة قشتالة وليون، وتألفت من زواجهما واتحاد المملكتين أسبانيا التى نعرفها. وعاصمة اقليم أراجون هى سرقسطة، وهى بلدة صغيرة تقع على نهر الابرو، ولأهلها لهجة خاصة بهم يقال إنها تأثرت باللغة العربية واللهجات البربرية، فقد كانت هذه المدينة الحواضر العربية الزاهرة فى شمال أسبانيا حتى استولى عليها الأرجونيون فى رمضان ٥١٢ هـ (١١١٨ م).

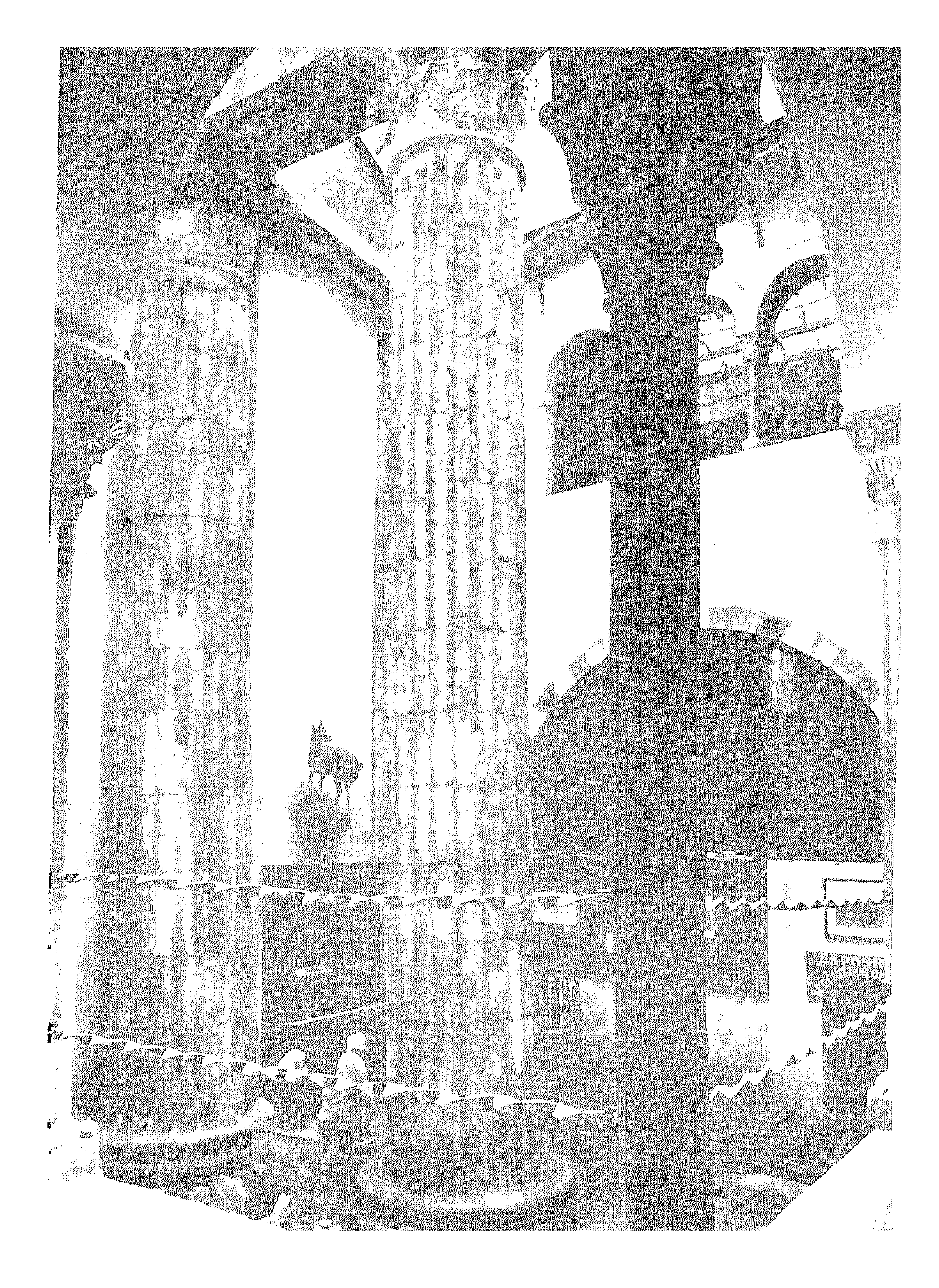
وقد أسس هذه المدينة الامبراطور الرومانى أغسطس عام ٢٣ ق. م، وعرفت باسمه « قيصر أغسطس »، أو « كيسر أوجستا » التى حرفها العرب إلى سرقسطة. وقد بنى حاكمها المقتدر بالله أبى جعفر قصراً عظيماً يعرف باسم قصر الجعفرية، على نهر ابرو وقد أقام به فرناندو ملك أرجون وحوله إلى قلعة محصنة، ولم يتبق منه اليوم سوى مصلاه، ولكن أثر العمارة الإسلامية واضح فى منشآت تلك المدينة، خاصة العقود المعروفة باسم حدوة الفرس والتى تعد من خصائص العمارة الإسلامية فى الأندلس، وكذلك استخدام بلاطات الفاينس لزخرفة السطوح الخارجية للقباب، على نحو ما نرى فى الكتدرائية العظيمة المقامة على شاطئ النهر فى قلب المدينة والمعروفة باسم « نوسترا سنيورة».

برشلونة والساحل الشرقى

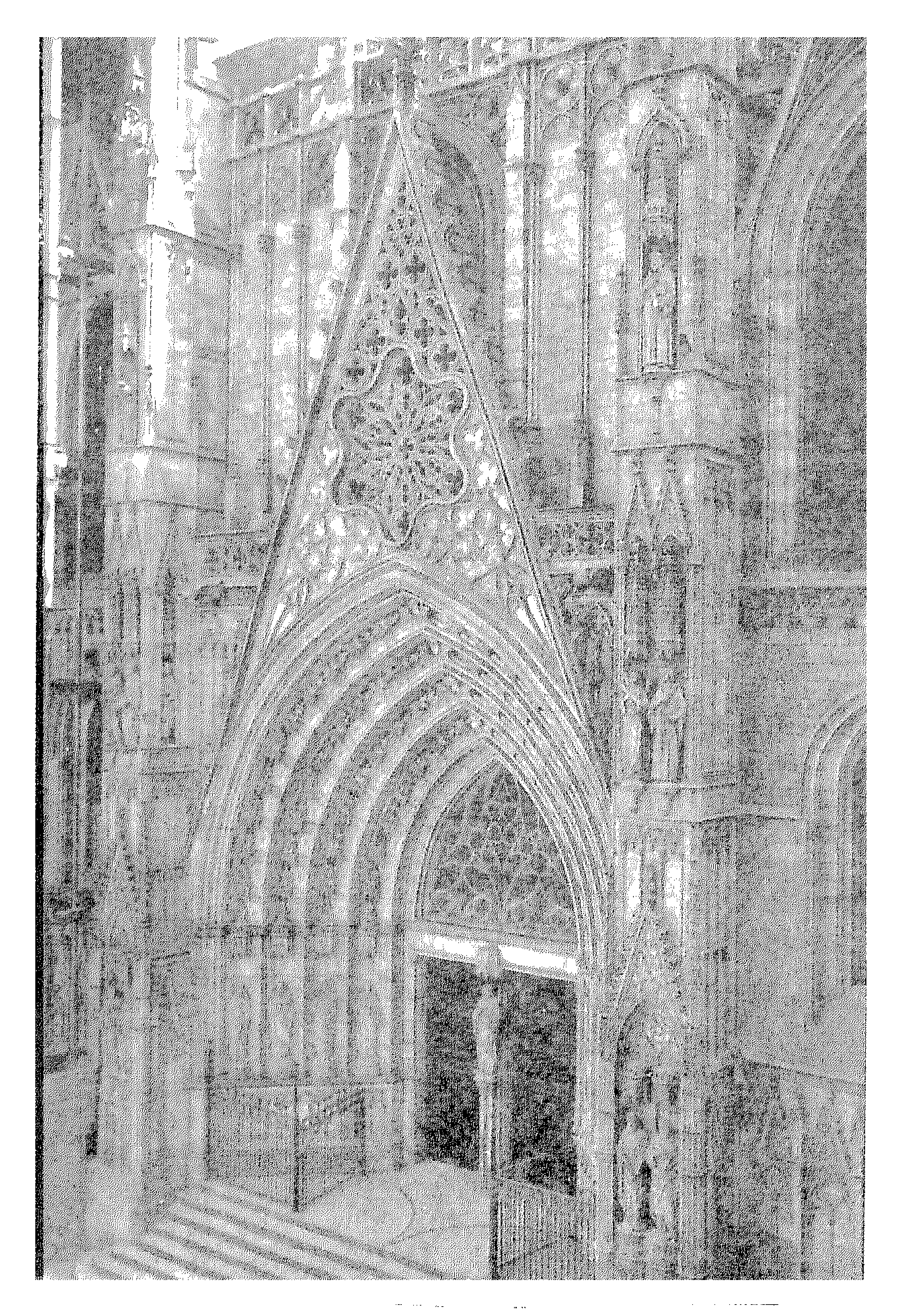
اتجهنا شرقًا صوب اقليم قطالونيا الذى يحتل الركن الشمالى الشرقى من أسبانيا ومساحته تقدر بحوالى ٣٢ ألف كيلو متر مربع وعدد سكانه يربو على الستة ملايين (الثمانينات)، وقد فتحه العرب فى مطلع القرن الثامن الميلادى، ولكن الملك الفرنسى شارلمان انتزعه من



كتدرائية العائلة المقدسة فى برشلونة ، عمل معمارى لجاودى
لم يقدر له الاكتمال « صورة نادرة ترجع إلى بداية هذا القرن »



كتدرائية قوطية فى برشلونة



عمدة رومانية الطراز من بقايا معبد هرقل فى متحف برشلونة

أيدى العرب فى عام ٨١٢ م، ثم خضع الاقليم بعد ذلك إلى مملكة أراجون، وفى اثناء الحرب الأهلية أعلن القطالونيون الجمهورية، ولكن قوات فرانكو قمعت هذه المحاولة الانفصالية، ومنعت استخدام اللغة القطالونية. ولكن الاقليم يتمتع الآن بالحكم الذاتى، وهو من الاقاليم الصناعية الهامة وأشهر مدنه برشلونة التى اقيمت فيها الدورة الأوليمبية عام ١٩٩٢ فى ذكرى مرور ٥٠٠ عام على اكتشاف أمريكا.

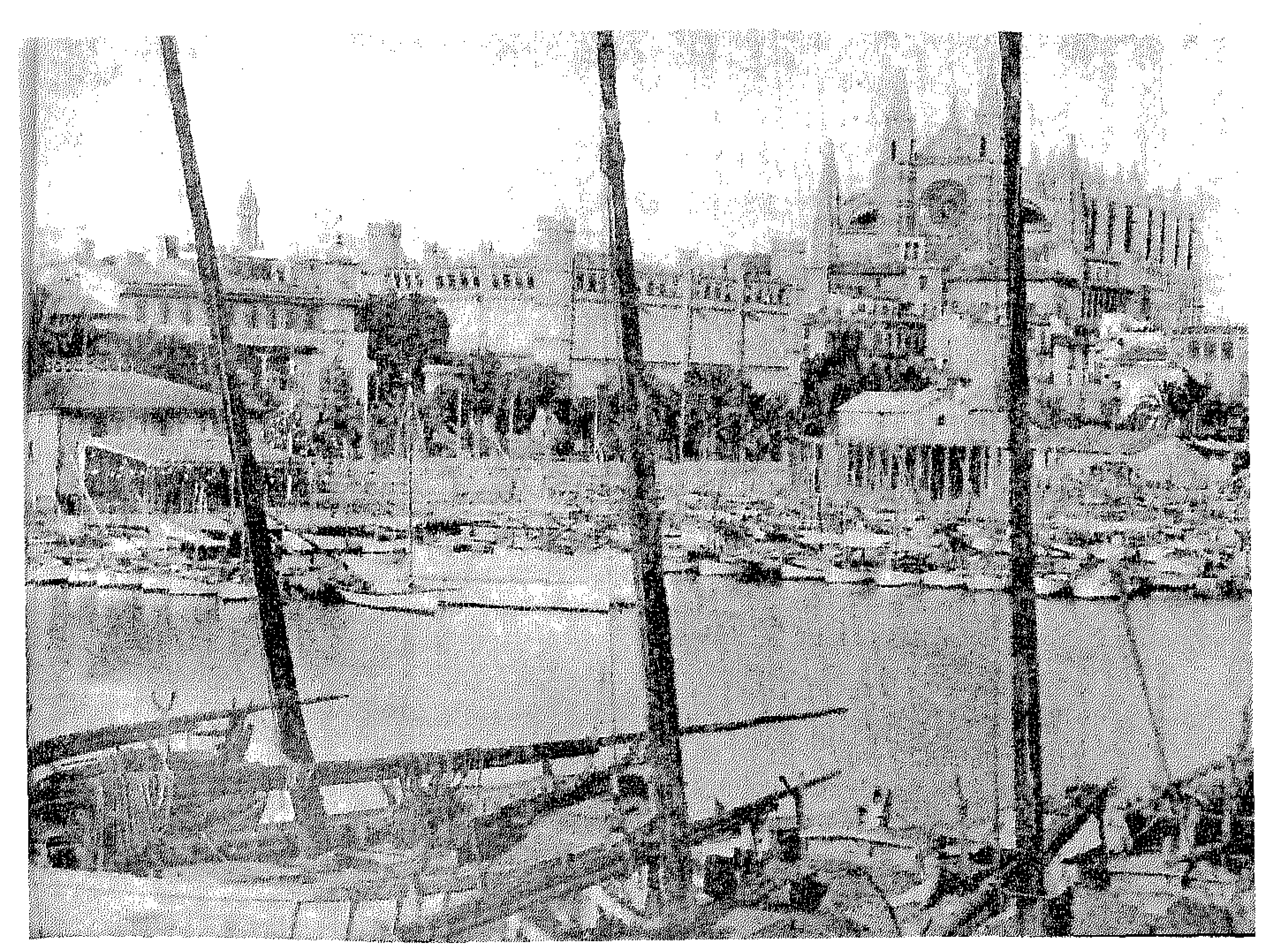
وقد أدخل كولومبس زراعة الذرة فى أسبانيا ومنها انتقلت إلى مختلف أرجاء العالم، ويزرع فلاحو قطالونيا مساحات واسعة من الذرة كعلف لحيواناتهم، وبعد أن يجنى الفلاح المحصول فى شهر سبتمبر، يعلق « أكواز » الذرة فوق الأشجار ويتركها حتى تجف بعيداً عن القوارض، وتبدو الأشجار المثقلة بأكواز الذرة فى هيئة عجيبة وكأنما الذرة تنمو فوق الأشجار.

وتعتبر مدينة برشلونة من أجمل المدن الأسبانية وأرقها مناخًا بحكم موقعها على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فالحرارة لا تزيد فيها عادة عن ٣٠ درجة فى الصيف ولا تنقص عن ٨ درجات فى الشتاء. وعدد سكانها يجاوز المليونين، وهى تنقسم مثل معظم المدن الأسبانية إلى قسمين، المدينة القديمة وشوارعها ضيقة وأبنيتها على الطراز القوطى، والمدينة الحديثة وشوارعها فسيحة وطرزها عصرية، ولكن كلا القسمين يتميز بالنظافة والجمال.

وكانت برشلونة أول مدينة أسبانية تضاء بالغاز، كما أقيم بها أول خط للسكك الحديدية فى أسبانيا وأول مصنع للمنسوجات القطنية

كذلك. وولع أهلها بالثقافة والفنون يظهر فى كثرة المكتبات العامة والمتاحف، ومن أشهرها متحف الفنان الأسبانى العظيم بابلو بيكاسو الذى درس فن التصوير هنا. كما أنجبت هذه المدينة أحد أعظم المعماريين فى العصر الحديث، ونعنى بذلك أنطونيو جاودى (١٨٥٢-١٩٢٦)، وقد ابتكر أسلوبًا فريدًا فى العمارة حاول أن يتحرر فيه من عبودية الخطوط المستقيمة، وأدمج فيه فن النحت، بحيث باتت عمائره أشبه بقطع نحتية، وقد اهتم بالزخارف النباتية التى عالجها بخطوط جديدة وطور من أشكالها، وكان يكسو بها واجهات المنشآت التى يبنيها حتى يزاوج بين الطبيعة والعمارة، ومن أشهر أعماله فى برشلونة كتدرائية العائلة المقدسة « سجرادا فاميليا » التى لم تكتمل مع الأسف، ولكن واجهتها وأبراجها بنقوشها البديعة تبدو كما لو كانت قلعة من قلاع الأحلام.

ويهيمن على الميناء تمثال عظيم للملاح الايطالى كريستوفر كولومبس على قاعدة عملاقة بهيئة العمود وتنتهى بكرة ترمز إلى الأرض وفوقها ينتصب تمثال كولومبس وهو يشير بأصبعه إلى الأرض الجديدة (أمريكا). ومن الغريب أن هذا المكتشف العظيم لم يلق إلا الجحود والنكران بسبب مؤتمرات الحاقدين ولم يعترف بفضله إلا بعد وفاته. وكان كولومبس من أوائل من آمنوا بنظرية كروية الأرض، واعتقد أنه يستطيع أن يصل إلى الهند والصين إذا أبحر غربًا فى المحيط الأطلنطى بدلاً من الدوران حول افريقيا، وهو الطريق البحرى القديم الذى كان خاضعًا لسيطرة البرتغاليين أعداء أسبانيا. وحينما وصل



كتدرائية بالمادى مايوركا التى تشبه القلعة
« صورة نادرة لها فى مطلع هذا القرن »

إلى جزر الكاريبى، اعتقد أنه وصل إلي الهند، ولم يتبين هذا الخطأ سوى بحار ايطالى آخر هو امريجو فيسبونتى الذى أثبت أن كولومبس قد اكتشف قارة جديدة، ولذا أسميت الأرض الجديدة باسم ذلك الملاح أمريجو، وتحول الاسم بعد ذلك إلى أمريكا.

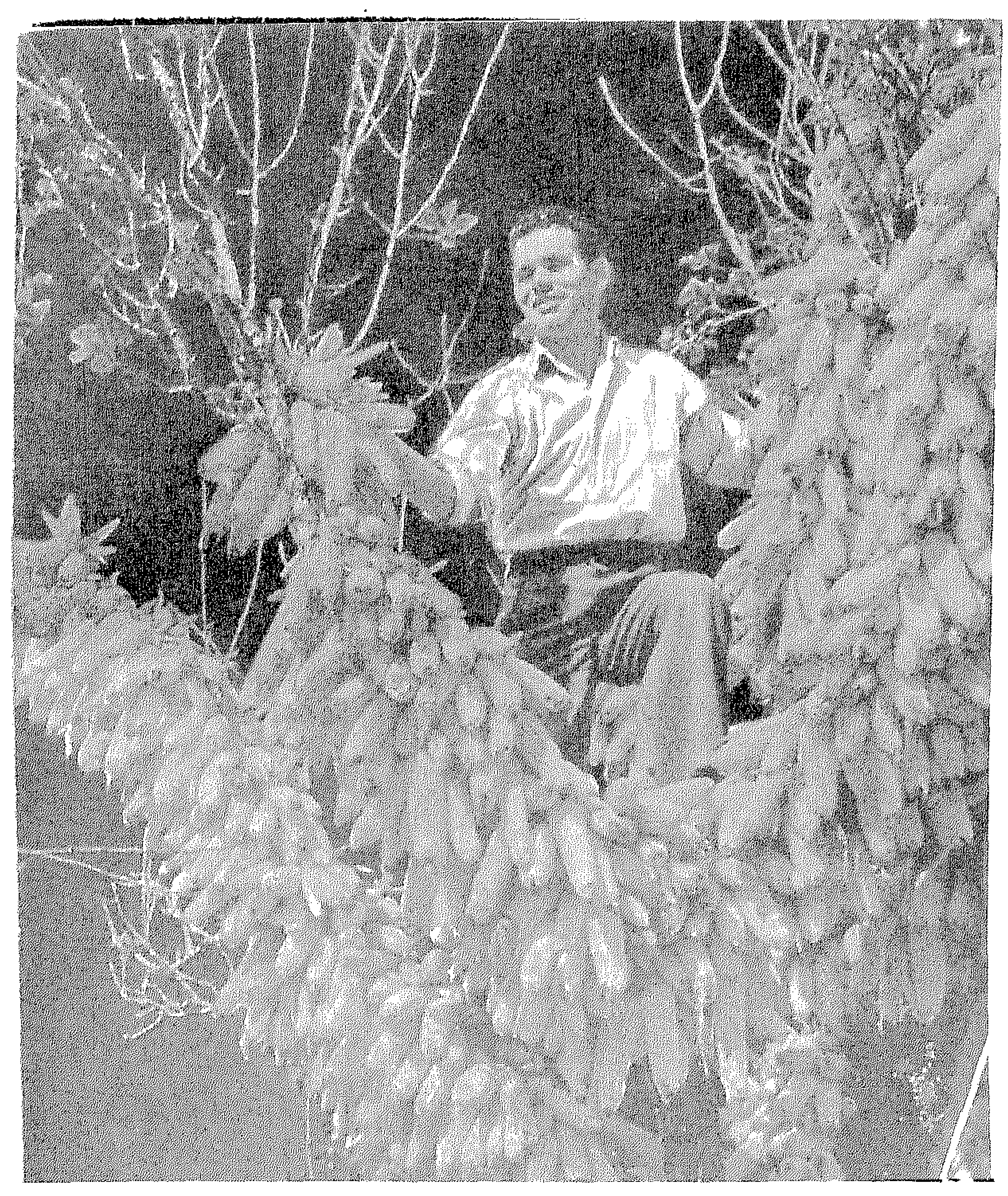
وإلى الشمال من برشلونة يمتد الساحل الأسبانى فى مساحة ضيقة محصورة بين صخور الجبال والبحر، ويطلق على تلك المنطقة اسم «كوستا برافا » أو الساحل البرى، وتشتهر بزراعة الأرز الذى تصدر

منه أسبانيا كميات كبيرة إلى دول شرق آسيا، وللطبيعة فى تلك المنطقة النائية جمال خاص، حيث تتقابل خضرة الغطاء النباتى الكثيف مع زرقة مياه البحر وحمرة صخوره، وفضلا عن ذلك تتمتع هذه المنطقة بمناخ معتدل يجذب إليها السائحين الفارين من برد الشمال.

وإلى الجنوب من برشلونة تمتد سلسلة من الشواطئ بطول ساحل البحر المتوسط، وأشهرها كوستا دورادا وكوستا بلانكا وكوستادل سول بالقرب من جبل طارق وقد استغلت أسبانيا تلك المنطقة فى إقامة مجموعة من القرى السياحية الانيقة على نحو ما فعلت مصر فى الساحل الشمالى حيث يمكن للسائح ممارسة الرياضات المائية المختلفة والاستمتاع بالغوص تحت الماء وممارسة الصيد فى بعض المناطق الجبلية.

بالما دى مايوركا

من لشبونة توجهنا بحراً إلى بالما دى مايوركا عاصمة جزر البليار الواقعة قبالة الساحل الشرقى لأسبانيا. وتقع مدينة بالما على رأس خليج فى جزيرة مايوركا أكبر جزر أرخبيل البليار. وقد فتحها الأمير العربى عبد الله بن موسى بن نصير عام ٧٩٨، ومنها توجه المسلمون إلى جزيرة سردينيا لفتحها. وفى عصر ملوك الطوائف أصبحت إمارة مستقلة ثم خضعت لإمارة بلنسية حتى استولى عليها ملك أراجون خايمى الأول عام ١٢٢٩، ثم احتل الأراجونيون جزيرة مينوركا الشمالية عام ١٢٨٠. وقد اضمحل شأن هذه الجزر فى القرون التالية،

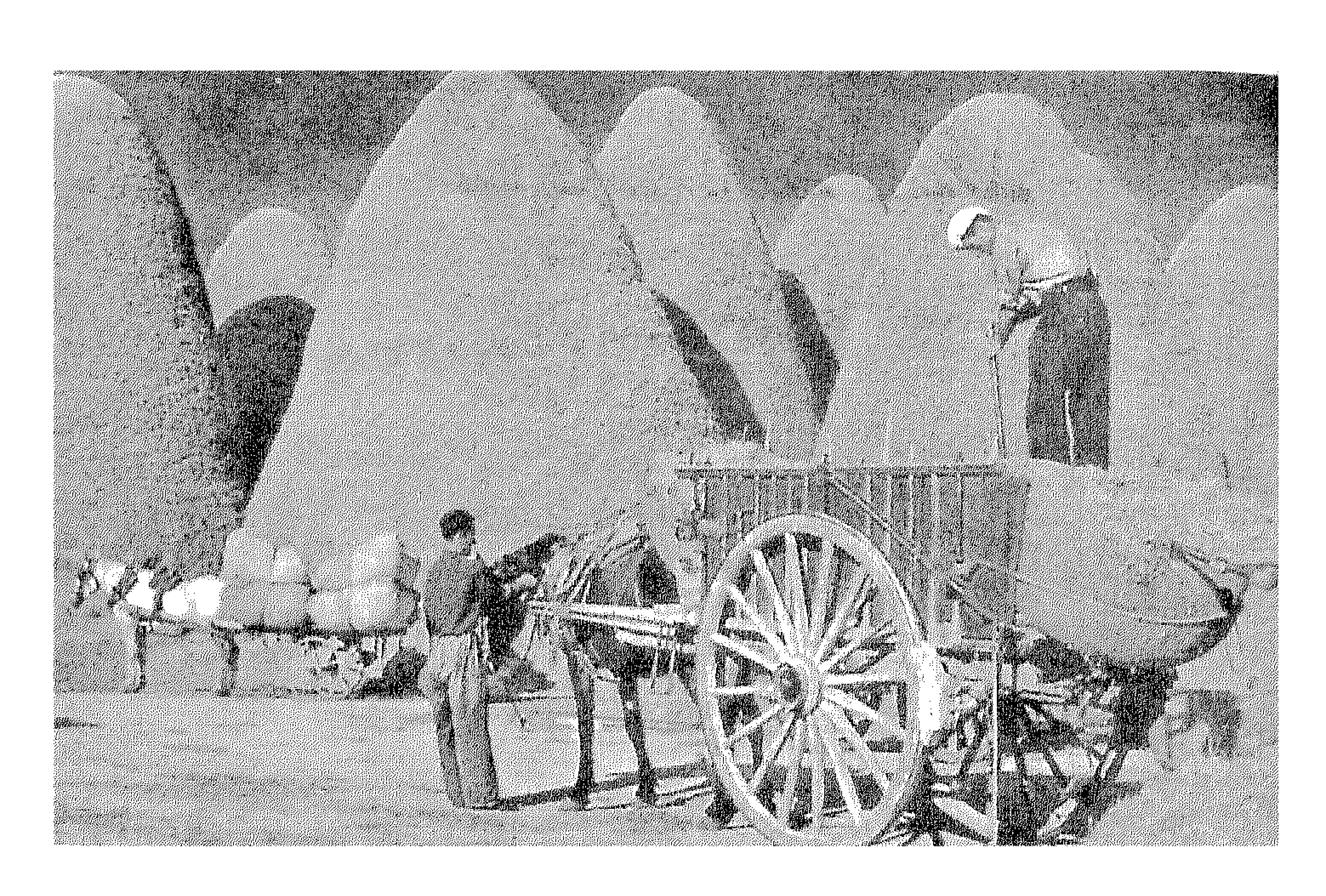


اكواز الذرة معلقة فوق الأشجار حتى تجف فى قطالونيا

وأصبحت هدفًا لغارات القراصنة. ولم يتبق من آثارها الإسلامية سوى بوابة بالقرب من قصبة المدينة القديمة وتعرف باسم باب سانتا مرجريتا، وحمام متخرب.

وقد أحيطت المدينة بسور ضخم مزدوج لحمايتها من القراصنة

ومازالت بقاياه موجودة حتى الآن، وتهيمن علي الميناء والمدينة كتدرائية ضخمة تشبه القلعة بجدرانها الضخمة وأبراجها العالية. ورغم طيب مناخ تلك الجزر وطبيعتها الساحرة لكنها ظلت مجهولة لأوربا حتى اكتشفها مصادفة الارشيدوق النمساوى لويس سلفادور عام ١٨٦٧. ومنذ ذلك الحين بدأ السائحون يفدون إلى جزر البليار، للاستمتاع بشواطئها الدافئة، وتحولت بالما من بلدة فقيرة يحترف أهلها صيد السمك، إلى مدينة سياحية كبرى ذات شهرة عالمية.



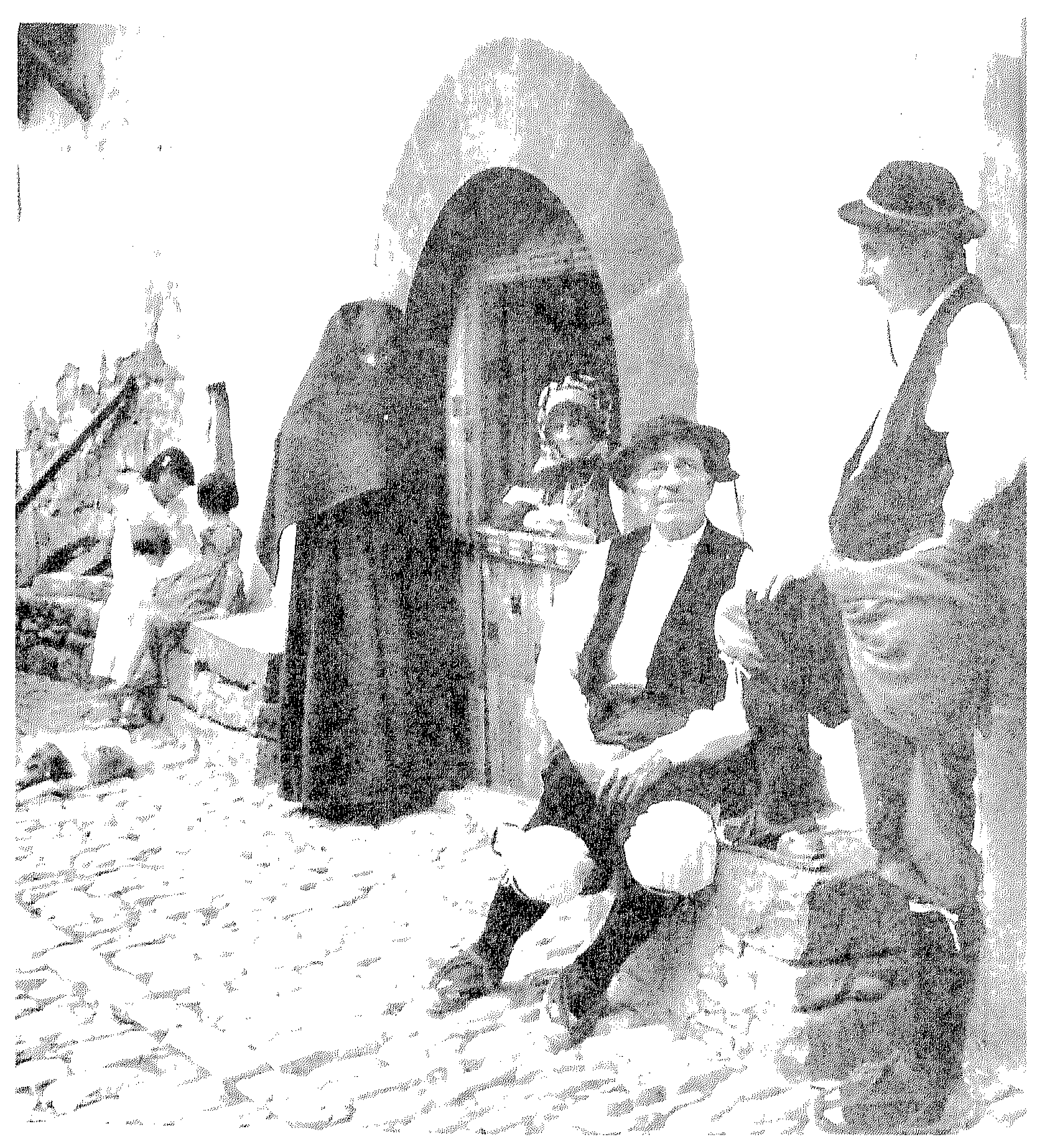
قرية تقليدية على سفح جبال البرانس

البرانس وساحل الأطلنطى

من برشلونة عدنا من جديد إلى وادى نهر الابرو، واتجهنا صوب الشمال الغربى بمحاذة جبال البرانس الشامخة التى تشكل حائطًا عملاقًا يمتد مسافة ٤٣٠ كيلومترًا من خليج جاسكوني حتى خليج ليون ليفصل أسبانيا عن فرنسا، وتتبع السفوح الشمالية فرنسا، بينما يتبع القسم الجنوبى منها أسبانيا ورغم ارتفاع تلك الجبال ووعورة مسالكها لكنها لم تكن حاجزًا فاصلاً حتى فى أقدم العصور، فقد اجتازها هانيبال ليهاجم ايطاليا ومن بعده جاءت قبائل الوندال ثم اجتازها العرب بقيادة الأمير عبد الرحمن الغافقى الذى اعتزم فتح فرنسا، ثم الزحف على القسطنطينية من الغرب، ولكنه هزم على يد شارل مارتل واستشهد في الموقعة الشهيرة المعروفة باسم بلاط الشهداء على ضفة نهر اللوار فى جنوب فرنسا.

واليوم أصبح الانتقال ميسرًا بين أسبانيا وفرنسا بفضل شبكات الطرق الجيدة وانفاق السكك الحديدية، ولكن الانتقال من الشرق إلى الغرب مازال صعبًا بسبب المنحدرات الجبلية والمساقط المائية، ولذا فمن الأسهل للزائر أن يسير بحذاء السفوح الجنوبية لتلك الجبال حتى يصل إلى ساحل الاطلنطى مرورًا باقليم نافار.

ولتلك المنطقة سحرها الخاص، فمازالت الحياة على فطرتها الأولى فى قرى الرعاة المنتشرة وسط الأودية وفوق المرتفعات الصخرية، وحينما تسير فى بعض تلك القرى المنعزلة تحس أنك قد عدت فى



قرية تقليدية في جبال البرانس

الزمان قرونًا، فالشوارع مرصوفة بالأحجار، وتحفها بيوت عتيقة ذات بوابات حجرية معقودة، ومازال الكثيرون من سكان القري النائية،

خاصة كبار السن، يحافظون على زيهم التقليدي، وهو السروال القصير المنتفخ الذي ينتهي بشراب طويل وصندل مفتوح، ويلبس الرجل في فصل الصيف قميصاً أبيض وصدارا ويرتدي قبعة مستديرة لطيفة. أما ثياب الفتيات فهي بهيجة كثيرة الألوان.

ويقصد السائحون منطقة البرانس للتمتع بممارسة رياضة الانزلاق على الجليد وقد أقيمت الكثير من الفنادق الحديثة على المرتفعات لاستقبال السائحين في فصل الشتاء.

ولأسبانيا ساحل طويل على المحيط الاطلنطي يبدأ ببلدة سان سبستيان بالقرب من الحدود الفرنسية ويمتد غربًا حتى البرتغال. وهو أقل شهرة من حيث النشاط السياحي من الساحل الشرقي، ولكنه يفوقه من حيث النشاط الصناعي والزراعي. وتنقسم هذه المنطقة إلى عدة اقاليم أهمها أستوريا وجليشا واقليم أو اقاليم الباسك.

والباسك شعب قديم مجهول الأصل يتكلم لغة غريبة يبدو أنها تنحدر من احدى اللغات القديمة التي كان يتكلمها سكان أوربا قبل قدوم الشعوب الهندو أوربية. ورغم أن الباسك يشبهون في الهيئة والملامح جيرانهم الأسبان، لكنهم معتزون بقوميتهم الأصلية وبلغتهم، ومنهم جماعات متطرفة تسعى بممارسة الإرهاب إلى الانفصال عن أسبانيا.

ورغم أن مساحة الاقليم لا تزيد كثيراً ٧ آلاف كيلومتر مربع يعيش عليها حوالي ٥ر٢ مليون نسمة، لكن لهذا الاقليم اهمية صناعية كبرى حتى أنه يشبه باقليم الرور الألماني.

وتقع عاصمته بيلباو على بعد اثنى عشر كيلو مترًا من البحر، على

مصب نهر نرفيون، وقد اتاح لها هذا المصب العميق ميناءً طبيعيًا ممتازًا يكاد يضارع فى أهميته ميناء برشلونة. ولكن مدينة بيلباو رغم قربها من البحر ليست بالمزار السياحى، فهى مدينة صناعية كبرى ومركز هام لصناعة الحديد والصلب، كما يجسد ذلك الجسر المعدنى العملاق الممتد فوق مياه مصب الزفيون على ارتفاع ٤٥ مترًا. ورغم أن المدينة التى تخيم عليها سحابات دخان المصانع تكاد تخلو من الأبنية الأثرية، لكن بها بعض المتاحف الأثرية الفنية التى تحتفظ بأعمال لألجريكو وجويا.

وعلى النقيض منها مدينة سان اسبستيان التى تقع فى أقصى الطرف الشرقى للاقليم بجوار الحدود الفرنسية، فهى منتجع هادئ كانت الأسرة الملكية تتخذه فى الماضي مقرًا صيفيًا للحكومة. وقد فقدت اليوم الكثير من شهرتها ولكنها ما تزال تباهى بمبانيها المؤسسة على طراز الامبراطورية التى تحف بخليجه المعروف باسم لاكونشا أو الصدفة لأنه يكاد يشبه الصدفة فى استدارته.

الطريق إلى طليطلة

من إقليم الباسك عدنا إلى الجنوب من جديد صوب مدريد ومررنا ببلدة بورجوس عاصمة مملكة قشتالة القديمة وبها كتدرائية عظيمة دفن بها المحارب الأسبانى الشهير الذى تشير إليه المصادر العربية باسم السيد الكنبيطور، وهو فارس أسبانى قشتالى اسمه الأصلى رودريجو

دياز دى فيفار (١٠٤٣-١٠٩٩)، أما الكنبيطور فهو تحريف لكلمة كومبيدور أى المحارب، ويجل الأسبان ذكرى ذلك الفارس الذى انتزع من المسلمين بلدة بلنسيه (فالنسيا) عام ١٠٩٤.

ثم اتجهنا جنوبياً صوب نهر بسويرجا لزيارة بلدة فالادوليد التى يرجح أن اسمها محرف من العربية من اسم « بلد الوليد ». وهى بلدة صغيرة اليوم، ولكنها كانت عاصمة أسبانيا فى عصرها الذهبى قبل التحول إلى مدريد، وفيها توفى كريستوفر كولومبس، ومنها حكم شارل الخامس (شاركان) امبراطوريته مترامية الأطراف. ولكن لم يتبق اليوم سوى القليل من مبانيها التاريخية التى تدل على مجدها القديم، وأشهرها كلية سان جريجوريو التى بنيت بطراز قوطى بديع يظهر فيه التأثر بالعمارة الاندلسية الإسلامية.

وتفصل بلدة ابن الوليد عن مدريد جبال سيرا جوادراما التى تعرفها المصادر العربية باسم جبال الشارات، ربما تحريفاً لكلمة سيرا التى تعنى سلسلة جبلية.

طليطلة

تقع طليطلة على بعد حوالى ٧٠ كم جنوب مدريد على نهر تاجه فى موضع استراتيجى حصين، فهى مبنية على ربوة عالية يحيط بها النهر من ثلاث جهات. وهى مدينة قديمة ربما تعود إلى زمن الاغريق، ثم خضعت للرومان ومن بعدهم للقوط، الذين أقاموا فيها عدداً كبيراً من الكنائس والأديرة. وقد استولى عليها طارق بن زياد دون قتال، إذ يروى أن أهلها قد تملكهم الفزع حينما وصلت إليهم أنباء هزيمة ملكهم

رودريجو (لذريق) ففروا من المدينة وتركوها خاوية.

وعندما انفرط عقد الخلافة الاسلامية فى الاندلس، كانت طليطلة من نصيب أسرة من أصل بربرى تدعى أسرة ذا النون. وقد ثار أهل طليطلة على المأمون يحيى آخر ملوك هذه الأسرة وطردوه خارج طليطلة، فلجأ المأمون إلى الاستعانة بألفونسو السادس ملك قشتالة لاسترداد ملكه، واستولى ألفونسو على المدينة عام ١٠٨٥ ولكنه رفض أن يسلمها لعبد القادر، واتفق معه على أن يعينه على الاستيلاء على مدينه بلنسية الاسلامية (فالنسيا) ليحكمها بدلاً من طليطلة، وأرسل معه قائده المعروف باسم السيد الكنبيطور، ولكن أهالى بلنسيه انفوا من أن يحكمهم هذا الخائن، فاستعانوا بالمرابطين وقتلوا عبد القادر، وانتهز القشتاليون الفرصة فأرسلوا الكنبيطور على رأس جيش للانتقام لمصرع حليفهم، وسقطت بلنسية فى عام ١٠٩٤، وهكذا ضاعت مدينتان من أعظم حواضر الاندلس نتيجة للخيانة والصراعات الشخصية.

وقد تعرضت طليطلة للإهمال واضمحل شأنها بعد طرد سكانها من المسلمين واليهود فى القرن السادس عشر، وكان معظمهم من الصناع والتجار، وأصبحت اليوم بلدة صغيرة، ولكن الآثار الباقية تشير إلى مجدها القديم ويمكن رؤية بقايا أسوارها القديمة فى الجانب الشمالى منها، أما الجوانب الأخرى للمدينة التى كان النهر يحيط بها فلم تكن مسورة فيما يبدو. وكان للمدينة عدة بوابات، من أهمها بوابة شاقرة التى مازالت قائمة حتى يومنا هذا، وهى بوابة ضخمة بنيت من أحجار

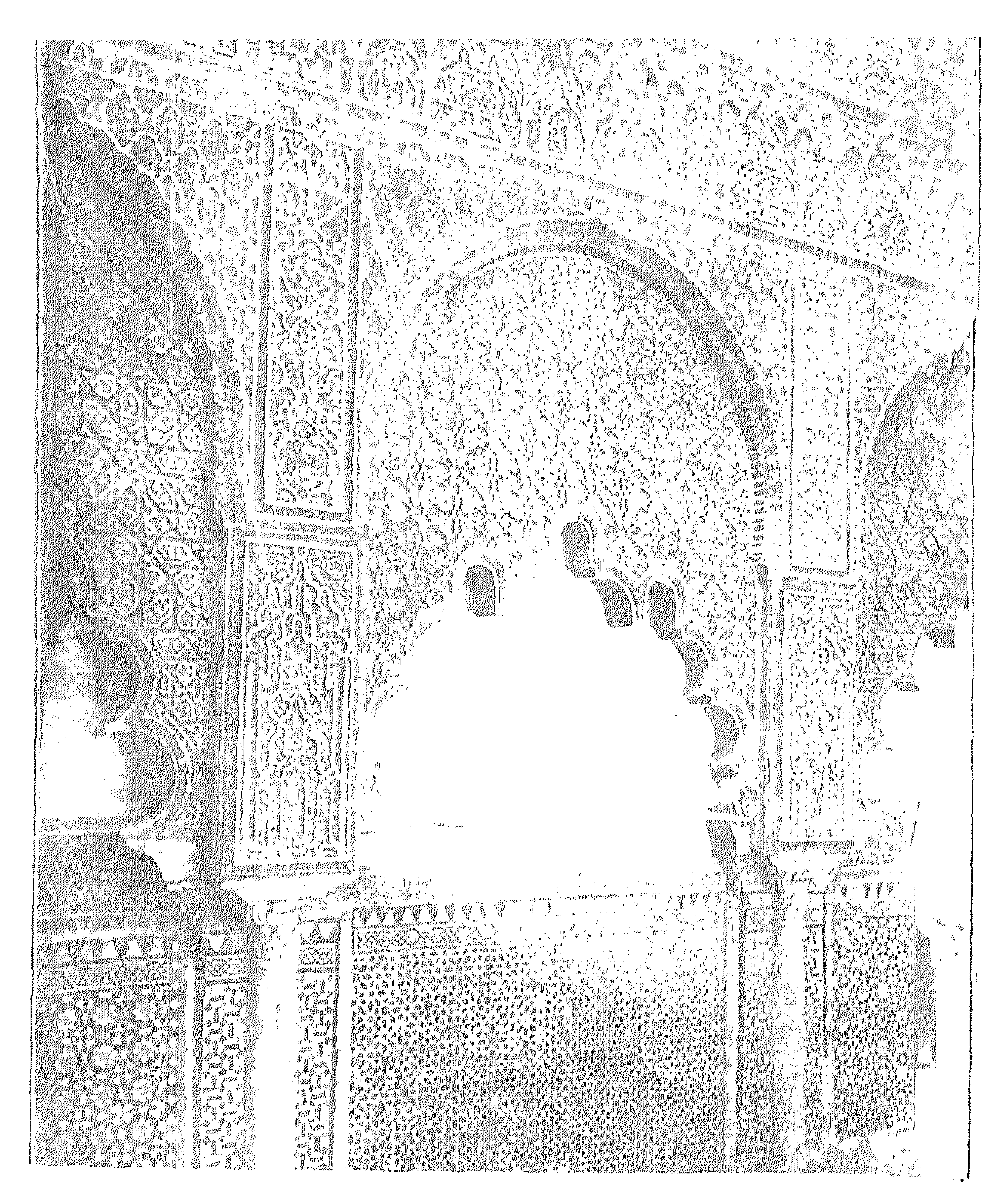
الجرانيت، وتحيط بها أبراج مربعة ضخمة تعلوها الشرفات الحجرية التى كان المدافعون يطلقون السهام من ورائها على الجيوش المغيرة. وفتحة الباب المشكلة على هيئة حدوة الفرس تشى بأصلها العربى.

وقد تحولت مساجد المدينة إلى كنائس بعد طرد المسلمين، ومنها كنيسة الكريستو دى لا لوث التى مازالت تحمل على واجهتها اللوحة التأسيسية المكتوبة العربية، ومنها نعرف أنها كانت فى الأصل مسجداً بناه موسى بن على فى عام ٣٩٠ هـ (٩٩٩ م). ومن المساجد الأخرى التى تحولت إلى كنائس كنيسة سان سلفادور وكان ذلك فى عام ١١٥٩، وعلى اثر هذا اتخذ المسلمون مسجداً آخر سرياً أقاموه فى الطابق العلوى لمنشأة صناعية ومازالت هذه المنشأة قائمة إلى اليوم وتعرف باسم دار الدباغين.

ومازال فى المدينة حمامان قديمان من العصر الإسلامى أحدهما فى الحى اليهودى القديم. أما القصور الملكية التى أقامها ملوك أسرة ذى النون، فقد اندثرت ولم يتبق إلا بقايا واحد منها يعرف باسم قصر جالينا. وكانت تلك القصور تشغل الركن الشمالى الشرقى للمدينة الذى تشغله اليوم مجموعة من الأديرة المسيحية التى يبدو أنها قد بنيت من أنقاض هذه القصور، كما تدل على ذلك بعض اللوحات الحجرية والجصية الزخرفية التى تشى بأصولها الإسلامية العربية.

قرطبة

انحدرنا إلى الجنوب نحو وادى النهر الكبير حيث اقليم اندولسيا (أو الأندلس) الذى يضم ثلاثا من أعظم الحواضر العربية فى أسبانيا،



المقصورة بجامع قرطبة

وهى قرطبة واشبيلية وغرناطة. تقع مدينة قرطبة على سفوح جبال سيرا مورينا، ويخترقها نهر الوادى الكبير، وهى مدينة قديمة سابقة للفتح العربى، ويعتقد بعض الباحثين أن أصلها فينيقى وأن اسمها محرف من كلمة كارتوبا التى تعنى المدينة الحسنة، ويرى البعض الآخر

أن أصلها ايبرى، وأيًا كانت صحة الأمر، فقد أصبحت قرطبة احدى أهم الحواضر الأسبانية إبان العصر الرومانى، وفيها ولد الفيلسوف الرومانى سنيكا والشاعر الرومانى الشهير لوسيان. وقد خضعت للقوط الغربيين منذ عام ٥٦٨، حتى فتحها العرب عام ٧١٢، الذين جعلوا منها حاضرة ولاية الاندلس الاسلامية، ثم تحولت إلى عاصمة الخلافة الأموية الجديدة فى الاندلس بعد استيلاء الأمير عبد الرحمن الداخل عليها.

وأصبحت قرطبة فى عهد الخلافة الأموية مركزًا حضاريًا رفيعًا وموطنًا للعلماء والفلاسفة والشعراء. وعنها يقول الرحالة ابن حوقل « هى أعظم مدينة بالأندلس، وليس بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل وسعة محل وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق.» وأصبحت قرطبة بحق عاصمة الإسلام فى الغرب كما كانت بغداد عاصمته فى الشرق.

وقد ضعف شأنها بعد سقوط الخلافة الأموية وقيام دول الطوائف، وكان أن سقطت فى يد فرناندو الثالث فى ٢٩ يونيو عام ١٢٣٦، وتحول جامعها العظيم إلى كنيسة، واضمحل شأن المدينة مثل طليطلة بعد أن هجرها الصناع والتجار المسلمون واليهود، وأهمل سادتها الجدد نظام الرى البديع الذى وضعه العرب لها، فجفت مروجها وتعرضت للتخريب دورها وقصورها، لأن ملوك الأسبان اعتبروها حصنًا أماميًا فى موجهة مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الأندلس.

واليوم أصبحت قرطبة عاصمة اقليم اندولسيا، ويقدر عدد سكانها

بحوالى ربع مليون نسمة (الثمانينات)، ومازال الجسر الذى أقامه يوليوس قيصر عبر نهر الوادى الكبير قائماً، وبالقرب منه بعض الطواحين المائية التى تعود إلى العصر العربى، وكانت أسوار المدينة العربية تمتد بحذاء النهر، ومن خلفها الجامع الكبير وأمامه تمثال للقديس روفائيل حامى المدينة.

وقد بدأ تأسيس الجامع الكبير فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل فى عام ٧٨٠ م تقريباً، ويقال إنه اقيم فى موضع كنيسة قديمة كانت اقيمت بدورها على معبد وثنى أقدم عهداً. ثم أضاف إليه ابنه هشام مئذنة، وتمت توسعة الجامع أكثر من مرة. وحينما يدخل المرء إلى صحنه المكشوف يلقى أمامه غابة حقيقية من الأعمدة لا يستطيع البصر أن يصل إلى منتهاها.

وقد جلبت هذه الأعمدة من ضرائب المعابد الرومانية ولذا تتعدد أشكال تيجان أعمدتها وطرزها، ومن الغريب حقًا أن المعمارى الاسلامى على براعته ورهافة ذوقه قد أهمل توحيد طرز تيجان الأعمدة، ولعل السبب فى ذلك تركيز على عمارة المسجد ككل، وربما رأى فى ذلك التنوع شيئًا من الجمال.

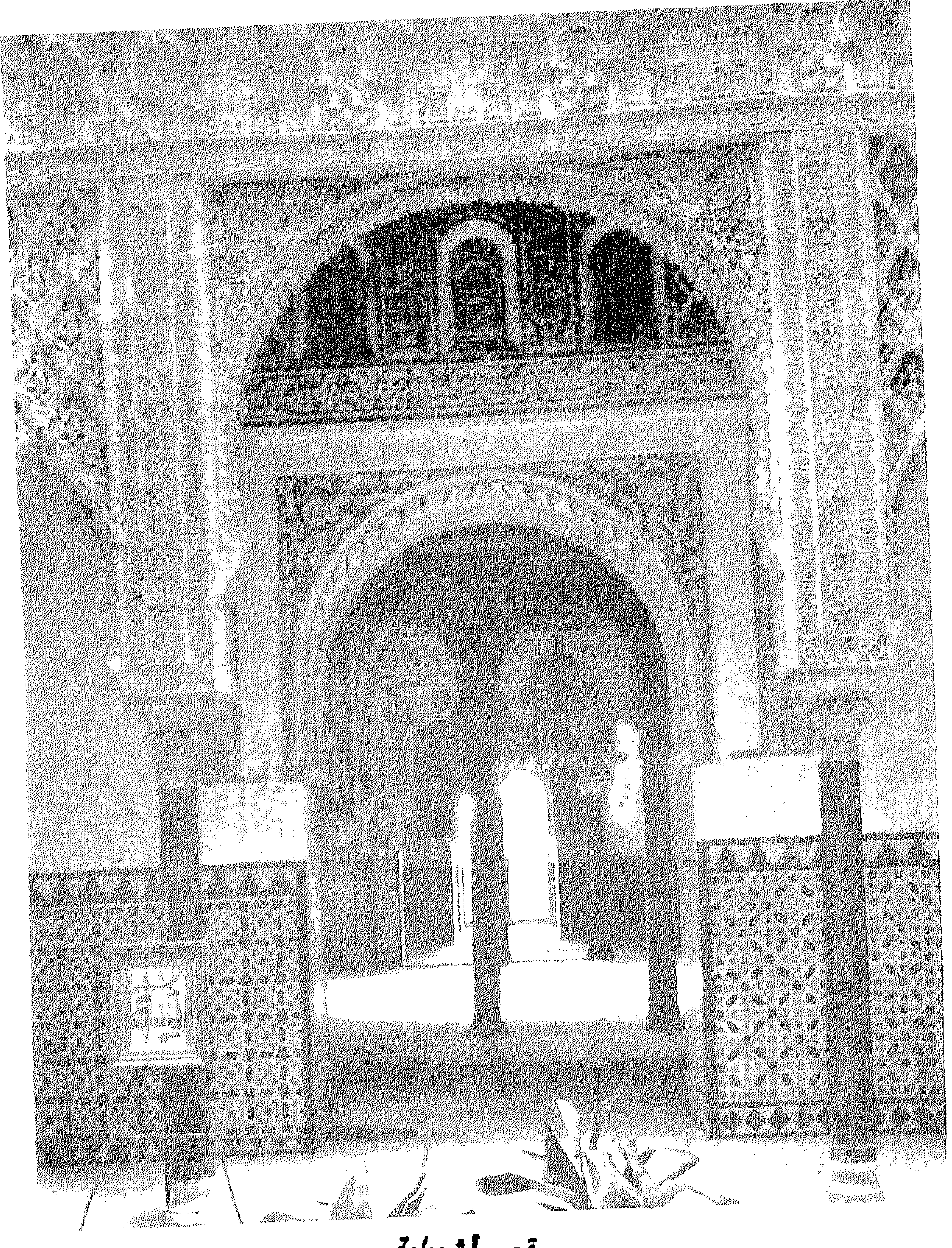
وجدران المسجد وسقوفه مزينة بزخارف هندسية بديعة، ويقال إن الملك شارلكان كان قد صرح لأسقف قرطبة بهدم جزء من المسجد لبناء كنيسة على الطراز القوطى، وعندما زار الكنيسة ورأى المسجد، ندم على ذلك وقال إن ما بنيتموه يوجد مثله الكثير ولكن ما هدمتموه لا يوجد له نظير قط.

اشبيلية

تبعد اشبيلية عن قرطبة حوالى ١٣١ كم إلى الغرب، وهى تقع على نهر الوادى الجديد مثلها، كما أن مناخها شديد الحرارة لاسيما فى فصل الصيف، وشوارعها القديمة ضيقة لا تكاد تتسع لمرور أكثر من عربة واحدة، مثل شوارع الحواضر العربية القديمة، ويبدو أن سبب هذا الضيق هو الرغبة فى أن تحجب البيوت والجدران أشعة الشمس الحارقة عن أرض الشارع والمارة حتى تظل رطبة.

واشبيلية مدينة قديمة، وقد اسماها الرومان اسباليس ومنه اشتق اسم أسبانيا. وجدد يوليوس قيصر أسوارها واستولى عليها القوط وجعلوها لفترة عاصمة لدولتهم قبل أن تتحول العاصمة إلى طليطلة. وقد فتحها موسى بن نصير بعد حصار طويل نظراً لمناعة أسوارها وحصانة موضعها.

وفى عهد ملوك الطوائف، حكمتها أسرة بنى عباد وشهدت المدينة فى ظلهم ازدهاراً كبيراً حتى تفوقت على قرطبة ذاتها، وكان من أشهر ملوكها الملك الشاعر المعتمد بن عباد. ولكن انغماس ملوك الطوائف فى حياة الترف وتفرق كلمتهم أغرى بهم ملك قشتالة الفونسو السادس كما رأينا من قبل، ولم ينقذ المدن الإسلامية الباقية إلا قدوم المرابطين من المغرب، الذين استطاعوا صد الجيوش القشتالية وإنهاء حكم ملوك الطوائف. ثم تبعهم الموحدون وكان أشهر ملوكهم أبو يوسف يعقوب المنصور الذى أقام مئذنة جامع اشبيلية الشهيرة المعروفة باسم



قصر أشبيلية

الجيرالدا.

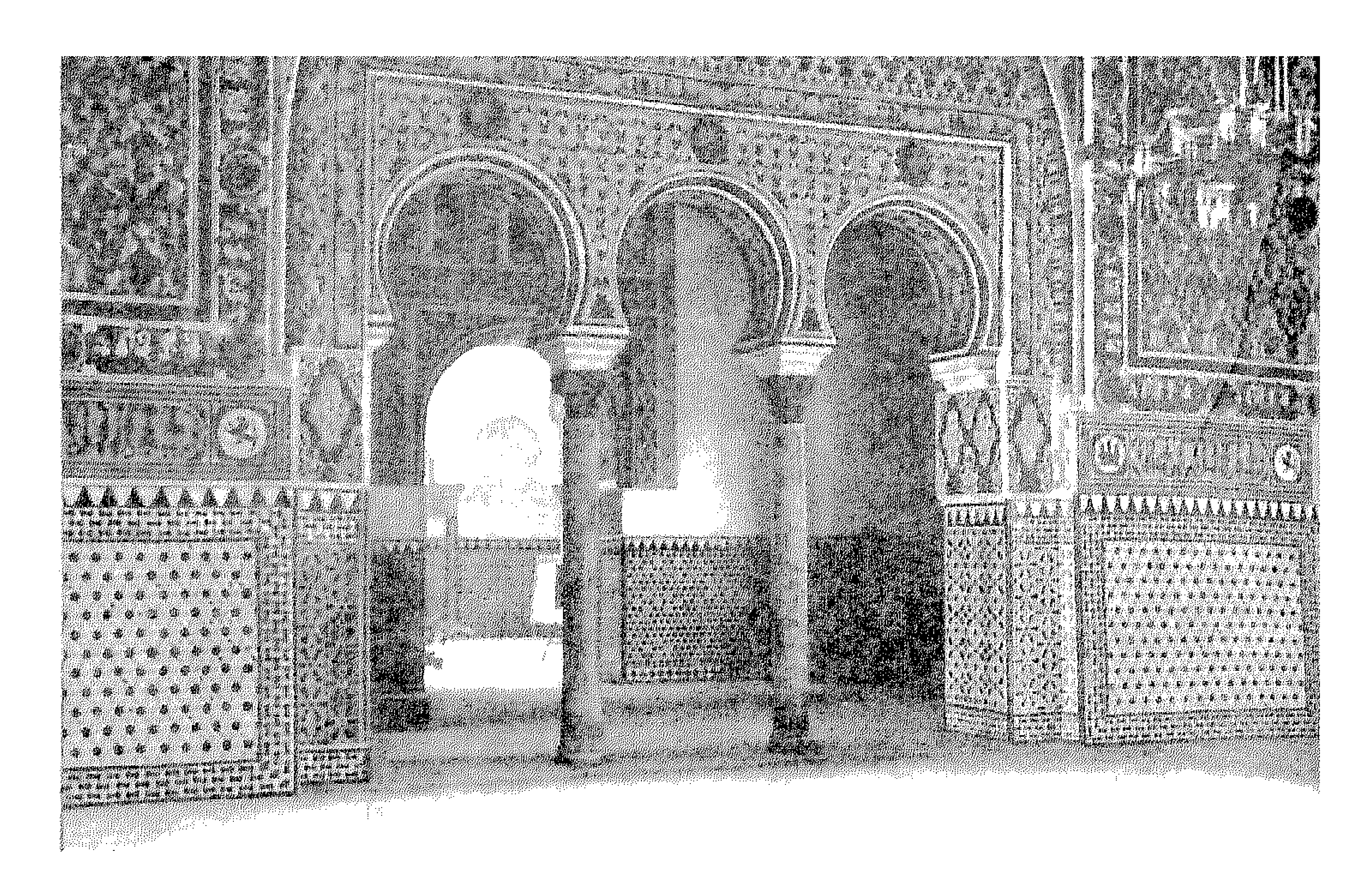
كذلك فقد أقام هذا الملك قناطر لنقل المياه إلى المدينة من نبع بعيد،

ومازالت بقايا هذه القناطر قائمة حتى اليوم بالقرب من أسوار المدينة القديمة. وكانت المياه تودع فى شبكات مائية فى باطن الأرض لتسقى القصور والحدائق.

وكان يحيط بالمدينة سور مزدوج تدعمه أبراج ضخمة مربعة ويحيطه خندق ضخم، ومازالت بقايا السور قائمة على امتداد نهر الوادى الكبير، وقد أقام أحد ملوك الموحدين (أبو العلاء ادريس بن أبى يوسف، برجاً ضخماً مضلع الشكل فى تلك المنطقة زينه بالفسيفساء الذهبية ومنه عرف باسم برج الذهب، ومازال قائماً فى موضعه حتى اليوم.

وقد استولى فرناندو الثالث على اشبيلية، وتحول جامعها إلى كنيسة، وقد هدم الجامع فيما عدا المئذنة التى تحولت إلى برج للأجراس، ووضع فى أعلاه تمثالا وزنه أكثر من ١٢٨٨ كيلو جراما، ورغم ثقله لكنه مصنوع بطريقة تجعله يدور مع الريح ليوضح اتجاهها، ومن هنا جاء اسم الجيرالدا أو لعبة الهواء الذى أطلق على هذه المئذنة. ويمكن الصعود إلى أعلى تلك المئذنة التى يصل ارتفاعها إلى حوالى ٧٠ متراً عن طريق أحدور صاعد، ومن قمتها يمكن رؤية مشهد بديع للمدينة والوادى المحيط بها.

وقد دفن فرديناندو فى الكنيسة التى أقيمت على موضع الجامع، ودفنت معه زوجته وابنته التى بنت هذه الكنيسة، كما يوجد بها قبر كريستوفر كولومبوس. والضريح مصمم بطريقة فنية إذ توجد تماثيل أربعة ملوك يرمزون إلى الممالك التى تألفت من اتحادها أسبانيا، وهى



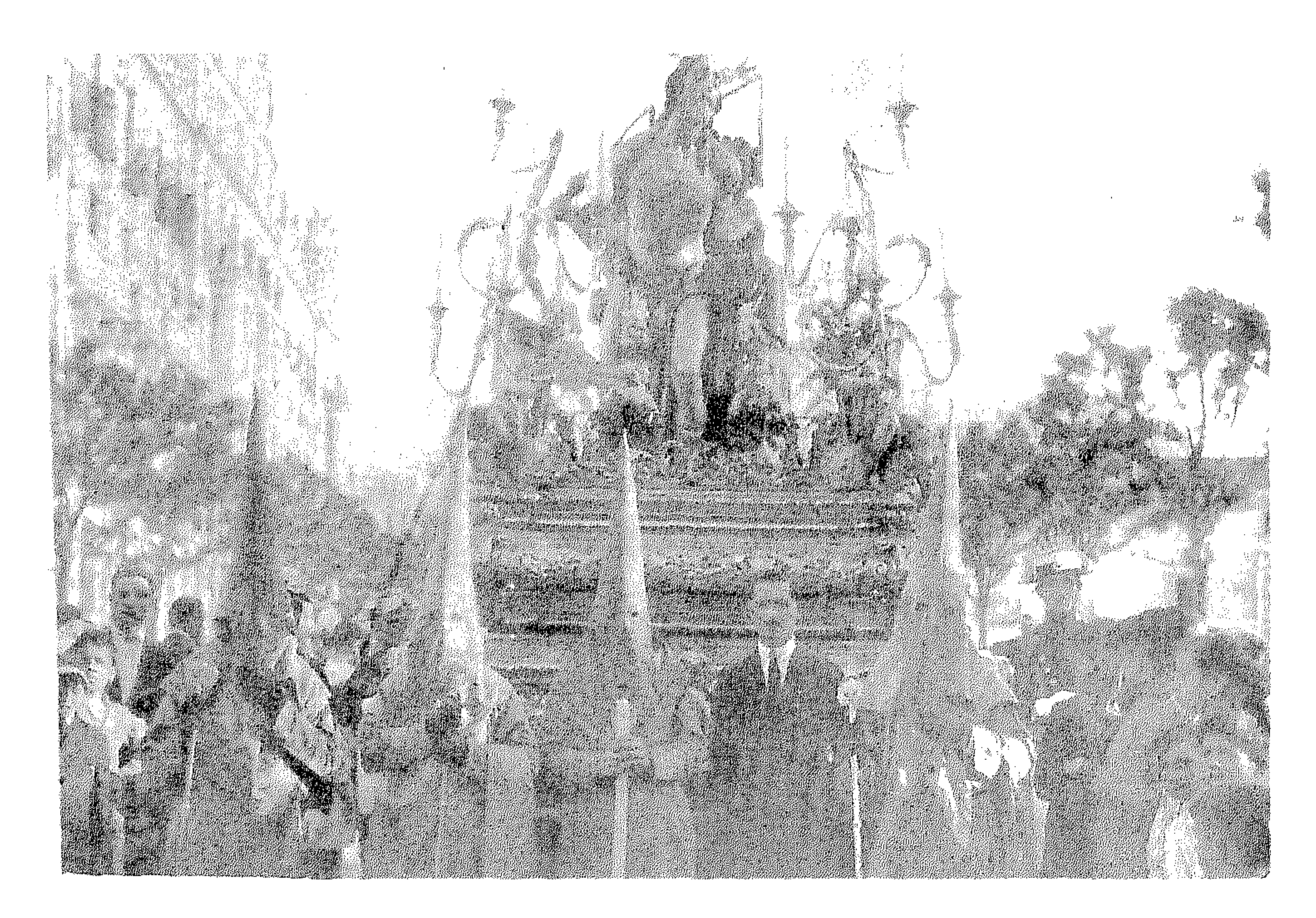
قصر أشبيلية من الداخل

قشتاله واراجون وليون ونافار، ويحمل هؤلاء تابوت هذا المستكشف العظيم، الذي عاد اكتشافه لأمريكا على أسبانيا بالخير العميم.

وبالقرب من الجيرالدا بقايا قصر قديم ينسب لأبى يوسف يعقوب، احد ملوك الموحدين، وقد اقيم على موضع قصر آخر للمعتمد بن عباد، ويشار لهذا القصر بكلمة « الكازار » الأسبانية وهى محرفة بطبيعة الحال عن كلمة القصر، وتستخدم بوجه عام للإشارة إلى الحصون والقصور، والقاعات القليلة المتبقية منه مزينة بنقوش جصية مذهبة بديعة، وبالقصر بستان واسع به بحيرة واسعة من الرخام مساحتها ٣٠٠ متر مربع وعمقها ثلاثة أمتار، وكانت مخصصة للملك، كما كان بالقصر أيضاً بحيرة أخرى طولها ٥٠ متراً وعرضها ٨ أمتار مخصصة فيما يقال لنساء القصر.

وعلى الضفة الأخرى للنهر توجد حديقة كبرى تعرف باسم حديقة ماريا لويزا، وقد اقيم فيها معرض عام ١٩٢٩ تحت اسم « ايبرو أمريكا »، واقيم خصيصاً لهذا المعرض قصر بديع على الطراز الأسبانى المتأثر بالفنون العربية، والقصر مقام على هيئة نصف دائرة وأمامه قناة بديعة تعلوها قنطرة مزخرفة بالقيشانى الملون. ويعتبر هذا القصر تحفة فنية جديرة بالمشاهدة.

ومن التقاليد الأسبانية المتوارثة المواكب الاحتفالية، وتنظم هذه المواكب فى أعياد كثيرة معظمها دينى، ومن أشهرها عيد الرب الذى تحتفل به الكثير من القرى فى منطقتى أراجون وقطالونيا، ويرتدى فيه المحتفلون أقنعة ضخمة من الورق الملون ليرقصوا رقصة العمالقة، أما فى بلنسية (فالنسيا) فتقام محرقة لحرق تماثيل معينة ترمز إلي الخطايا. أما في اشبيلية فينظم خلال الأسبوع المقدس (فى ابريل) موكب يطوف المدينة وتعرض فيه تماثيل تصور المسيح والعذراء والجنود الرومان وهم يعذبونه وتوضع التماثيل على محفة مذهبة وحولها المصابيح الأنيقة وتخرج مواكب التائبين من الكنيسة وهم يرتدون أقنعة طويلة وقبعات مخروطية تشبه « الطراطير »، ويحمل هؤلاء الشموع أو الصلبان فى مشهد رهيب يذكرنا بالعصور الوسطى. وكانت تلك المواكب ممنوعة فى عصر فرانكو بحجة أنها تتنافى مع الدين، وأياً كانت صحة هذا، فلاشك أن السبب الحقيقى لمنعها هو الخوف من أن يستغلها معارضوه لتدبير مظاهرات ضده، ولكن هذه المواكب عادت من جديد منذ بداية الثمانينات.



الموكب المقدس، لاحظ الزى العجيب الذى يرتديه التائبون

غرناطة

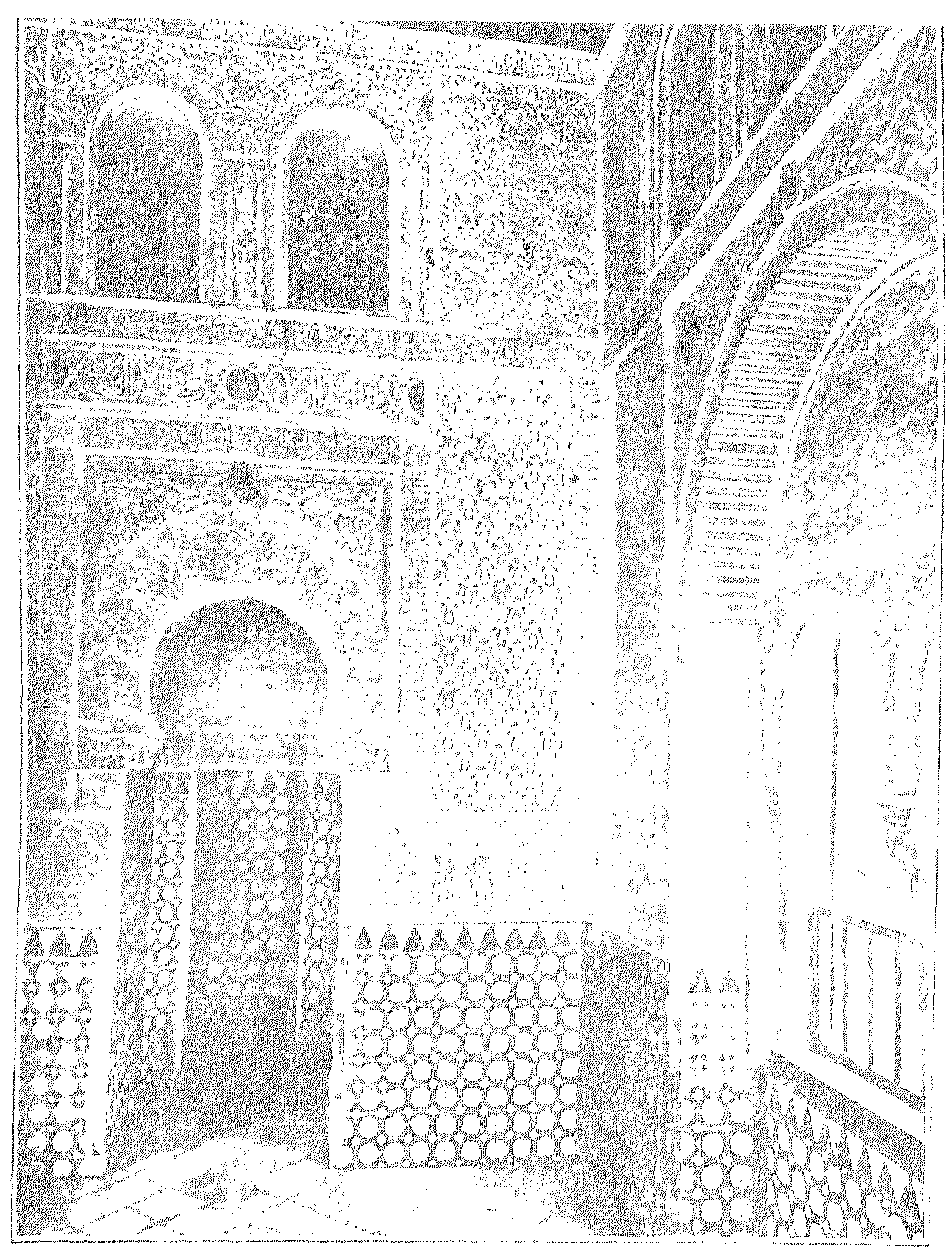
تبعد غرناطة عن اشبيلية حوالى ٢٨٨ كم شرقًا ويسير القطار إليها فى أرض تكثر فيها المزارع وغابات الزيتون وأجمات الكافور وأشجار الفاكهة المختلفة لاسيما المشمش والكمثرى والرمان والخوخ والتفاح كما تزرع فيها الخضر والبطيخ.

وتقع غرناطة عند ملتقى نهر شنيل بنهر دارو (حدرة) وكانت فى الأصل قرية صغيرة من أعمال كورة البيرة، ثم أخذت تنمو تدريجيًا حتى أصبحت حاضرة ذلك الأقليم. ومع تساقط المدن الإسلامية فى أيدى الأسبان هاجر السكان المسلمون إلى الجنوب، وكان من بينهم

الكثير من مهرة الصناع وأرباب الحرف، وأخذ هؤلاء يفدون إلى غرناطة، التي أصبحت بعد سقوط قرطبة واشبيلية آخر المعاقل الإسلامية في الاندلس. وقد آل حكمها عام ١٢٣٧، أى بعد عام واحد من سقوط قرطبة، إلى محمد بن يوسف بن نصر. فأسس فيها مملكة قوية استطاعت الصمود أمام ملوك قشتالة وأراجون أكثر من قرنين ونصف من الزمان.

وفى ظل حكم بنى نصر أو بنى الأحمر غدت غرناطة أعظم الحواضر الإسلامية فى المغرب العربى، ويقال إن سكانها كانوا لا يقلون عن نصف مليون نسمة، وكان يحيط بها سور عظيم به ألف وثلاثون برجاً محصناً، ولكن شأن هذه المدينة قد اضمحل بعد سقوطها فى أيدى جيوش ايزابيلا وفرناندو ولاسيما بعد طرد المسلمين واليهود منها، ولم يعد لهذه المدينة ما تباهى به سوى قصر بنى الأحمر أو قصر الحمراء، أو الهمبرا كما ينطقه الأسبان.

وقد أسس هذا القصر أبو الحجاج يوسف الأول (١٣٣٤-١٣٥٤) وأكمله ابنه الغنى بالله محمد الخامس، وينهض هذا القصر على ربوة تعرف باسم جبل شلير شرقى المدينة، وارتفاع هذا التل ١٥٠ م وتربته حمراء، ولذا ينسب البعض اسم الحمراء للون التل، وإن كان الأرجح أن الاسم مشتق من لقب الأسرة الحاكمة « بنى الأحمر ». ويحيط بالقصر بستان عظيم يحف به سور محصن به ٢٤ برجاً مربعاً، ويتألف هذا القصر من جملة أبنية منها مسجد صغير ينسب إلى محمد الثانى وقد حوله الملك شارلكان إلى كنيسة ولكنه احترم نقوشه وكتاباته فلم



المنظر الداخلي لمسجد قصر الحمراء

يعمد إلى طمسها.

وبالقصر بهو يعرف بقاعة الحكم أو العدل ينسب إلى يوسف الأول،

ويبدو أنها كانت مخصصة للنظر فى المظالم والشكاوى فعلى جدرانها نقشت صورة يد مرفوعة إلى السماء وبجوارها مفتاح وكأنما الفنان يرمز إلى أن العدل هو المفتاح الذى يؤدى إلى الجنة، وتتردد على الجدران عبارات لا غالب إلا الله، وكأنما هى تعكس إحساس القلق المستبد بسكان وحكام تلك المدينة إزاء الخطر المحدق بهم من الشمال.

وتتقدم القاعة ساحة أو فناء مكشوف تحف به أروقة تحمل سقوفها أعمدة رخامية رشيقة، وزخرفت جدرانها بنقوش جصية بديعة، وهى من الرقة والرهافة بحيث يخال المرء أنه أمام أستار من الدنتل، لا جدران من الآجر والجص. ويعرف هذا المكان باسم فناء السباع، نسبة إلى نافورة تحف بها مجموعة من السباع الرخامية. وتعتبر هذه السباع من التماثيل القليلة التى خلفها لنا الفن الإسلامى. وتنساب مياه النافورة فى مجار مائية رخامية تحمل الماء إلى أركان الفناء الأربعة، فيكون لسقوط الماء وقع لطيف وسط الصمت والهدوء اللذين يكتنفان المكان.

ويؤدى الفناء إلى غرفة تعرف اليوم باسم قاعة بني سراج، وكانت تلك الأسرة من الأسر النبيلة، ويقال إن أحد أبنائهم قد أحب أميرة من أسرة بنى الأحمر، وكان الحبيبان يلتقيان في قصر قريب يعرف باسم جنراليف أو جنة الريف أو ربما جنة العريف، وكانا يجلسان تحت شجرة يدعوها المرشدون السياحيون بشجرة الملكة، ولما علم الملك بذلك، عزم على درء الفضيحة بالتخلص من أفراد هذه الأسرة، فدعاهم لزيارته في القصر، ثم دعاهم واحداً بعد الآخر إلى دخول القاعة، وكان فى انتظارهم سياف الملك، الذى أطاح بأعناقهم. وعلى حد قول هؤلاء

المرشدين مازالت أرواحهم تطوف بالقصر وتأتى فى الليل لتصرخ مما أصابهم من الظلم.

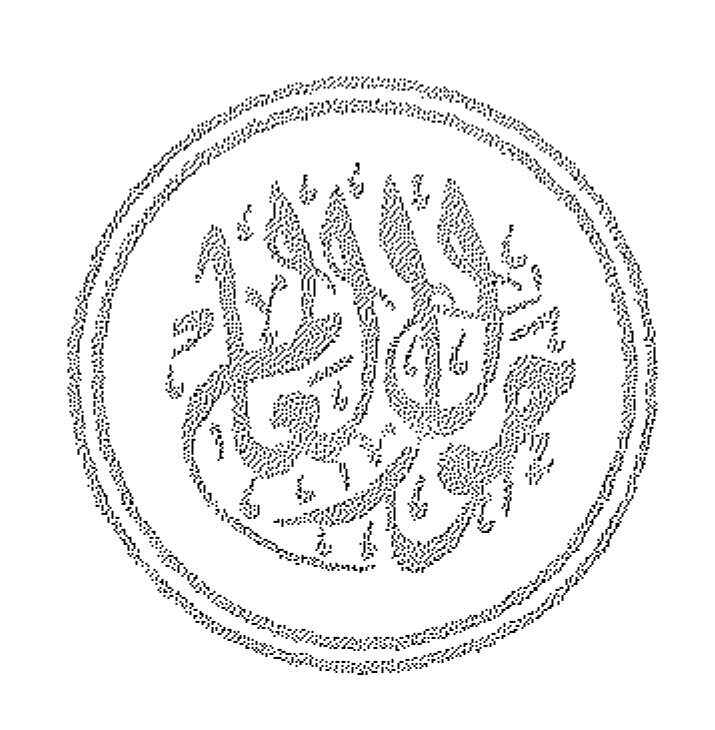
وعندما سمعت كارمن تلك القصة ضحكت وقالت لي إن هذه الحكاية تخلط بين مأساة بنى سراج وقصة الوزير الشاعر بن زيدون الذى أحب ابنه الخليفة المستكفى، وكانت شاعرة مثله، وقد اضطر إلى الفرار من قرطبة إلى اشبيلية. أما بنو سراج فقد تشيعو فيما يبدو إلى أحد أمراء بنى الأحمر، ونصروه على أخيه الصغير، وكانت المنازعات الأسرية هى القاعدة فى أواخر عهد آل الأحمر، وقد قتل من ملوكهم غيلة عدد كبير، وعندما تولى الأخ الأصغر العرش فتك بأنصار أخيه ومنهم بنى سراج، ففر بعضهم إلى ملك قشتالة وعملوا فى خدمته.

حينما سمعت هذه القصة، توجهت إلى شرفات القصر ونظرت إلى حى البيازين المجاور بدروبه الفقيرة الضيقة، فرأيت القصر بعين أخرى : إن هذا الترف الخرافى فى تلك الجنة الوارفة لايدل إلا على أن ملوك بنى الأحمر كانوا لا يعون حقيقة الخطر المحدق بهم. ولو أنهم انفقوا ثرواتهم المكدسة فى أوجهها الحقة لخير رعاياهم ولإعداد الجيوش للدفا ع عن أرضهم، لما دب الشقاق بين أبناء الأسرة الواحدة، فمن ذلك الذى لا يرغب فى أن يستحوذ لنفسه على قصر كهذا القصر بكنوزه وتحفه وقيانه وجواريه.

وخاتمة هذه الأسرة هى عبرة لنا وعظة. فيقول التاريخ إنه فى الوقت الذى اتحدت فيه مملكتا أراجوان وقشتالة لم يتورع الأمير أبو عبد الله محمد عن الدخول فى حرب سافرة مع عمه أبى عبد الله الزغل بينما فر

أخواه محمد ويوسف إلى القشتالين للاستعانة بهم على أخيهم وعمهم. ولم تهدأ الحرب إلا بعد أن اقتسم أبو عبد الله وعمه المملكة. ثم إذا بالعم يبيع نصيبه للقشتاليين بحفنة من الذهب ويغادر الأندلس إلى المغرب، بينما تتقدم جيوش ايزابيلا وفرناندو لحصار غرناطة، ويضطر أهل المدينة للاستسلام بعد ما نفدت أقواتهم، ويغادر عبد الله قصره ومعه أمه، ومن بعيد يلتفت إلى القصر فتنحدر دمعة على خده، وترى ذلك أمه فتقول : « فلتبك كالنساء على ملك لم تستطع صونه كالرجال.»

يقال إن البجعة إذا قرب أجلها، صدح صوتها بأغنية بديعة تنعى بها نفسها، وقد كان قصر الحمراء هو أغنية البجعة للحضارة العربية في الأندلس.



استراليا
كندا
اسبانيا
تركيا
الهند
الصين
اليابان
اندونيسيا
ايطاليا
البرازيل
بيرو
تونس
عمان
بلجيكا
جنوب افريقيا

